الفصل الرابع

السلوكيون الاجتماعيون

أولا: السلوكيون الأوائل

- نسقى
  - فبر
  - ميد
- طبيعى
  - سمل
  - سمنر

ثانيًا: السلوكيون المعاصرون

- نسقى
  - بلومر
  - جوفمان
- طبيعى
  - جارفنكل
  - بلاو

obeikan.com

السلوكيون الاجتماعيون

الظروف الاجتماعية

يعتبر السلوكيون الاجتماعيون مجموعة من المفكرين تمثل أفكارهم رد فعل لمشاكل معينة فى ظل نوع من التفكير المشترك إذ أنهم من البروتستانت فيما عدا سمل Simmel. وقد نالوا تعليما واسعًا فى التاريخ والفلسفة واللاهوت. وكان مسارحياتهم أساسًا أكاديميّاً، ولقد كابدوا الآثار الديناميكية للتصنيع والتحضر. ولقد نشأ معظمهم متأثرًا بمثالية عصر التنوير، والنظريات التطورية، والداروينية، والمذهب العملى الحديث.

وهكذا يمكن اعتبار أن المذهب السلوكى الاجتماعى هو رد فعل جماعة من مفكرى البروتستانت كمحاولة لمواجهة المشاكل الحديثة للتغير الاجتماعى. فهذه النزعة تعتبر شكل جديد من المذهب العضوى ولكن يتجه إلى دراسة الوحدات الصغرى، حيث تدرس العوامل الفردية كمحدد للسلوك الاجتماعى، وحيث تنظر إلى المجتمع من ناحية منظور الفرد، إذ تعتبره مجموعة من القيم من ناحية، ومن ناحية أخرى كمجموعة من الأشخاص المتفاعلين، فهذه النظرة انبعثت كاستجابة لحاجات النسق عند مستوى الوحدات الصغرى.

وهكذا أصبحت الظواهر المعيارية والثقافية عند مستوى الوحدات الصغرى موضع اهتمام هؤلاء المفكرين وبؤرة دراساتهم. وذلك فى محاولة لفهم المجتمع عند المستوى الفردى، وخاصة ما لاحظه هؤلاء المفكرين من تزايد الوعى الاجتماعى نتيجة لتأثيرات التصنيع. وبتقدم التحضر والنمو الاقتصادى، حاول علم الاجتماع فهم هذا البناء الاجتماعى المتغير عند المستوى الفردى فى ضوء قيم عصر التنوير مثل المثالية. تمامًا مثل ما يحدث حديثًا من التركيز على القيم الفردية للأخلاق البروتستانتية والمذاهب التابعة لها.

والنزعة السلوكية الاجتماعية مثلها مثل النظريات الأخرى لديها عدد من الأنماط الفرعية، فهناك نموذج التفاعل الاجتماعى المتبادل، والنموذج الطبيعى، بمعنى

النمط النسقى والـنمط الطبيعى. فـالنمط النسقى يمكن مشـاهدته فى أعمال فـبر Weber وميد Mead فهـما يعتبـران أن الفرد نتاج المجتـمع ومن ثَمَّ يركزان على العمليات الاجتماعية المهـمة. بـينمـا النـمط الـطبيعى يـعتبر الغرائز الإنـسانية أو الحاجات الإنسانية أساسًا للعمليات الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى، التى يعتقدون أنها أساس المجتمع.

وإن كان النمطان يختلفان فى أسـاسهما فإن نماذجهما متـشابهة، فهى دراسات للحقيقة الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى وتطورية واستقرائية.

السلوكية الاجتماعية المبكرة

النموذج النسقى

تعتبـر هذه الدراسة أن الفرد رشيد ويمثل نتـاجًا لمجموعة معـينة من العلاقات الاجتمـاعية. فهى تعتـبر أن المجتمع ما هـو إلا مجموعة من العـلاقات والقيم، وأهم عمليات المجـتمع هى التنشئة الاجـتماعيـة والتفاعل المتبادل بـين أعضائه. وطبقًا لهـذه الفكرة اعتبرت الفرد كـتابًا خطه المجتمع، ويعكس توجيـهات القيم السائدة التى نشأت فى داخل مـحتوى اجتماعى معين. مـثل هذه النظرة المعيارية النسقية عن الحقيقة الاجتماعية نجد لها تعبيراً صادقًا فيما كتبه كل من فبر Weber وميد Mead.

***

obeikan.com

ماكس فبر
MAX WEBER
(١٩٢٠ - ١٨٦٤)

ولد ماكس فبر من أسرة بروتستانتية فى ألمانيا من الجناح اليمينى للأحرار. ولقد تلقى فبر تعليما واسعًا فى الاقتصاد والتاريخ والقانون والفلسفة واللاهوت، وتربى فى ظل الفلسفة المثالية الألمانية. وعمل فبر أستاذًا للاقتصاد فى جامعة فرايبورج Freiburg، ثم أستاذًا فى جامعة هايدلبرج Heidelberg أستاذًا للاقتصاد. ولقد كان فبر منشغلا بالسياسة الألمانية من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يحاول صنع علم اجتماع موضوعى أى متحرر من القيم Value- Free. فقد كان فبر مهتما بروح الإنسانية وخاصة بالقيم، معتبرا الفرد فاعلا أكثر من مجرد صنيعة للتاريخ.

ويلاحظ أن كثيرًا من كتابات فبر لا تنتمى إلى ميدان علم الاجتماع بنطاقه المعروف فأغلبها يعالج مشكلات ملموسة أكثر مما يعالج موضوعات أساسية فى النظرية العامة لعلم الاجتماع. ومع ذلك فقد كان فبر يتمتع بقدرات تحليلية فائقة مكنته من تقديم إسهامات خطيرة إلى النظرية فى علم الاجتماع، وذلك من خلال دراسته المتعمقة لهذه المشكلات، بل ولقد أسهم فى النظرية بدراسته لمشكلات وموضوعات لا ترتبط بشكل مباشر بالنظرية[١].

وكانت أهم كتاباته تعكس اهتمام فبر بتطور نسق قيم النوع البشرى، ومن أهم ما كتبه فبر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية (١٩٠٥) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism وكذلك كتابه علم الاجتماع الدينى (١٩٢٠) Sociology of Religion وكذلك كتابه الاقتصاد والمجتمع (١٩٢٣) Economics and Society.

(١) نظرية علم الاجتماع -نيقولا نيماشيف- ترجمة دكتور محمود عودة وزملاؤه- دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٥٣.

obeikan.com

أهدافه:

عـرف فبـر علم الاجتـماع على أنه (الـعلم الذى يحاول شـرح وفهم الفـعل الاجتـماعى من أجل الوصول إلى التـفسير السـببى causal explanation لسبب حدوث الفعل وآثاره)[1]. ويلاحظ أن هذا التعريف يتضمن عدة عناصر محورية، (أ) محـاولة التفسيـر أو الفهم، (ب) التركيـز على الفعل الاجتـماعى أى السلوك الملتصق به المعنى الذاتى subjective meaning وهو يعنى بذلك التركيز على القيم الاجتمـاعية كعنصر أولى فى توجـيه السلوك الفاعل، (جـ) وأخيـرًا محاولة صنع تفسير سببى لهذه الظاهرة.

وهكذا نجد أن فبر كان مهتما بـالفهم العلمى للسلوك الاجتماعى إذ اعتبره بؤرة علم الاجتـماع. ومن ثَمَّ ركز فـبر على الفهـم الموضوعى للقيم الاجـتماعـية فى محتوى تاريخى، وحاول تقدير وطأتها الاجـتماعية على المجتمع. ومن أجل ذلك درس فبر مواضيع متعددة، مثل الأخـلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، والسلطة الكارزماتية charismatic authority، والبيروقـراطية bureaucracy، والترشيد rationality. وذلك أنه كان يعـتبر أن علم الاجتـماع لابد أن يهتم بدراسـة القيم المتقـاطعة crucial values أى المتشـابكة التى تحدد السلوك الاجتـماعى عند نقطة معينة من تاريخ تطور المجتمع.

وهكذا يمكن مـلاحظة أن هذا النوع من الدراسـة يخـتلف تمامًا عن دراسـات الوحدات الكبرى والنواحى البنائية للمجتمع.

نظرية الفعل الاجتماعى
SOCIAL ACTION

يعتـبر فبر أن الفعـل الاجتماعى له مـعنى عند الفاعل عندما يفتـرض الفعل معنى ذاتى كـما أنه يأخذ فى حـسبانه سلوك الآخرين، ومـن ثَمَّ فالفعل يعتـبر موجه نحو الآخرين.

(1) Weber, Max: "Basic Concepts in Sociology" Peler Owen, London. 1962.

واعتبر فبر أن هناك عدداً من الأنماط المتمايز للمعنى Meaning:

١- معنى مقصود واقعى للفعل الفردى الثابت، ويعنى به المعنى الذاتى.

٢- مستوى الواقعية للفعل المقصود، ويعنى به المستوى المعيارى للجماعة.

٣- المعنى الملائم للصياغة العلمية الخالصة، مثل التجريد والنماذج النظرية.

وكل الأنماط الثلاثة تتعلق بأنماط متعددة من التفسير السببى.

اعتبر فبر أن الفعل الاجتماعى مختلف فى مستوى الرشد rationality ولقد وضع فبر أربعة أنماط من الفعل الاجتماعى تتراوح بين أقل وأعلى مستوى من الرشد وهى:

١- الفعل الاجتماعى الموجه بالتقاليد traditionally Orianted social action، ويعنى به السلوك التقليدى taditional behaviour، وهو يقع قريبًا من حدود ما يمكن أن يقال عنه فعل يوجه معنى، وإن كان فى الغالب يقع فى الجانب الآخر، لأنه غالبًا ما يكون رد فعل تلقائى automatic للمنبهات المعتادة، فهو عبارة عن السلوك المعتاد الذى تحدده التقاليد، إنه ذلك الحجم الكبير من الأفعال المعتادة يومياً التى ألفها الناس.

٢- الفعل الاجتماعى الموجه بالعاطفة، ويعنى به السلوك العاطفى الخالص Purely affectual behavior، وهذا الفعل يقع أيضًا عند حدود المعنى meaninfully وغالبًا ما يعبر هذه الحدود. فمثلا قد يتضمن هذا الفعل رد فعل غير مضبوط لبعض المنبهات غير العادية. إنها حالة من التسامى sublimation عندما يحدث الفعل المحدد عاطفياً فى شكل تحرر الوعى من التوتر العاطفى. وعندما يحدث هذا نكون على الطريق نحو الترشيد.

٣- توجيه رشيد نحو قيم مطلقة absolute value، ويعنى به الفعل الاجتماعى الذى يحدده مجموعة معينة من الأخلاق والقيم. ويتمايز هذا الفعل عن النمط العاطفى، بوعى الفاعل التام بالصيغة النهائية للقيم الحاكمة للفعل. وفى الوقت نفسه كل من النمطين (٢، ٣) لهما عناصر مشتركة، أعنى أن معنى

obeikan.com

الفعل لا يكمن فى إنجـاز نتيجـة خلفه، ولكن فى إنجاز وإتمام نمط مـعين من الفعل من أجله وحده. والأمثلة على الفعل العاطفى هو الإشباع لضغط مباشر للانتـقام، تكويس الإنسـان نفـسه لشـخص أو فكرة، أو أخـيرًا العـمل على التخلص من التوتر العاطفى.

والأمثلة على التوجيـه الرشيد الخالص نحو قيم مطلقـة، هو الفعل لأشخاص الذين بغض النظر عما قد يقع عليهم من التكاليف المحتملة، يفعلون ليمارسوا معتقـداتهم التى يشعرون أنها من متطلبات الواجب والشـرف والجمال الخالص والدعاوى الدينية والولاء الشخصى.

وعندما يكون الفعل موجه إلى قيم مطلقة، فإنه يتضمن دائمًا أوامر commands أو متطلبات demands، التى يشعر الفاعل أن عليـه واجب القيام بها. إنه فقط فى الحالات حيث يحرك الأفعال البشرية إنجاز مثل هذه المتطلبات غير المشروطة، تلك هى الأفـعال التى يمكن أن توصف بأنها موجـهة إلى قيم مطلقة.

٤- فعل مـوجه عقليّـاً نحو نسق من الغايات الفـردية مميز، عندمـا تكون الغايات والوسائل والنتائج قد أخـذت كلها فى الاعتبار عقليّـاً وقدرت. وذلك يتضمن التأمل العقلى للوسائل والغايات البديلة، وكذلك إمعان النظر العقلى لعلاقات الغايات بالنتائج المتوقعة من استخدام أى وسيلة متاحة، وأخيرًا الأهمية النسبية لمختلف الغايات المحتملة. الاختيار بين البدائل والغايات والنتائج المتصارعة قد يحددها التقدير للقيمة المطلقة. وفـى هذه الحالة يكون الفعل موجهًا عقليّاً إلى نسق من الغايات الفردية الممـيزة فقط بالنسبة إلى اختيـار الوسائل. ومن ناحية أخرى ربما الفاعل بدلا من أن يبت بين البدائل والغايات المتصارعة فى عبارات من التوجـيه الرشيد إلى نسق من القـيم، فإنه ببسـاطة يأخذها كرغبـات ذاتية ويرتبها بوعى فى سلم حسب أهميتها.

ويلاحظ أن فـبر خـتم هذا التصنيف بقـوله إنه من النادر جـداً أن نجد أفـعالا اجتماعيـة قد وجهت فقط تبعًا لواحد أو آخـر من هذه الأساليب، وأكثر من ذلك

أن هذا التصنيف من أساليب التوجيه لا يعنى بأى شكل أنه يستوعب إمكانيات المجال الاجتماعى، ولكن فقط هو عبارة عن صياغة مفهومية لأشكال خالصة من الأنماط ذات أهمية اجتماعية. والتى بالنسبة لها الفعل الحقيقى قد يقترب منها كثيراً أو قليلاً.

كما أنه وإن كان هذا التنميط طبقًا لرأى فبر ليس شاملاً ولا مانعًا إلا أنه يمثل بالأحرى أنماط من التوجيه الاجتماعى تدور من الثقافة ذات النزعة الفردية القليلة والضبط العالى للتقاليد، إلى تلك الثقافة ذات النزعة الفردية العالية ويقل فيها نسبياً ضبط التقاليد[1].

ولقد عمل فبر على رسم وتوضيح أنواع الشرعية والعلاقات والاتحادات والجماعات، والضبط المنغرس فى كل شكل من أشكال التوجيه، من التقليدى إلى العاطفى إلى التوجيه الرشيد الذى تحدده القيم المطلقة، إلى التوجيه الرشيد الذى تحدده الغايات الفردية كالآتى:

١- فى النوع التقليدى، تكون الشرعية مؤسسة على الميول والاتجاهات الدينية، وعلاقات التضامن جمعية، والاتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية، والضبط قائم على النظم الدقيق.

٢- فى النوع العاطفى، مؤسس على الولاء العاطفى والمشاركة جمعية، وفيه يكون الاتحاد اختيارى والجماعات المشتركة ثورية، والضبط يقوم على أساس القوة.

٣- التوجيه الرشيد المحدد بقيم شرعيتها مستمدة مما تقوله هذه القيم، وفيها تكون العلاقات اتحادية، وتكون الاتحادات إجبارية والجماعات المشتركة مقدسة والضبط قائم على النظام.

٤- التوجيه الرشيد نحو نسق من الغايات الفردية يكون مؤسسًا على المصالح الذاتية والعلاقات اتحادية، واتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية والضبط قائم على القوة.

---

(1) Weber: "The Theory of Social and Economic Organaization", Trans. A.M. Henderson and Tallcot Parsons, ed. Parsons. Glencoe, Ill.: The Free Press, 1947. Part I P.P. 88, 112- 23.

وهكذا تكون الأنماط المختلفة من المجتمعات أو الأفعال الاجتماعية مؤسسة على أنماط مختلفة من القيم أو من مستويات الرشد.

نظريته فى التغير

بعد أن صاغ فبر نظريته فى الفعل الاجتماعى وموجهاته أقام على أساسها نظريته فى التغير الاجتماعى وخاصة أنه (قد بدت لفبر الماركسية نظرية حتمية وحيدة العلية لا يمكن الدفاع عنها أو تأييدها، ومن ثَمَّ تصبح مجحفة وغير مناسبة لإعادة بناء العلاقات الاجتماعية أو التاريخية. وشعر فبر أن ماركس كاقتصادى قد ارتكب نفس الخطأ الذى يفعله الأنثروبولوجيون فى أيام فبر، من إقامة نظريات جزئية لما هو عظيم الأهمية، واختصار تعدد العوامل العلية إلى نظرية عامل وحيد)[1].

فقد كان فبر يدرك أهمية العلاقات المتبادلة فى كل الوضع النظامى الذى يصنع البناء الاجتماعى، ولهذا كان من أهم وجوه النقد التى وجهها إلى الماركسية هى أنها فشلت فى التمييز بين ما هو اقتصادى بحت وبين ما هو له ارتباط اقتصادى، ويضرب فبر مثلا على ذلك أن الحجاج إلى روما هم بالتأكيد لهم علاقة بسوق النقود، ولكن لا يجعلهم ذلك مشاريع اقتصادية. فأهمية الأفكار الدينية أو السياسية للنظم الاقتصادية لا تحول تلك الأفكار إلى عوامل اقتصادية، إنما المسألة تختص بعلاقاتهم الاقتصادية[2]. فقد فسر فبر الديناميكية الاجتماعية على أساس تحليل تعدد العوامل التى يمكن عزلها وقياسها تبعًا لأهمية أسبابها الخاصة، وفعل ذلك بالتحليل المقارن للوحدات القابلة للمقارنة التى توجد فى مختلف الثقافات.

ولكن يلاحظ أن فبر كان شديد الميل لإعطاء العوامل اللامادية وخاصة العامل الدينى أهمية أكبر، (فيما يختص بالتأثيرات الأولية المختلفة على أنماط الثقافة

(1) Gerth, H. Mills, C.W.: "From Max Weber, Essays in Sociology" A Galaxy Book, Oxford University Press, New York, 1958. P.P. 46- 47.

(2) Ibid.: P. 47.

والمجتمع، بلا ريب أثبت فبر الأسبقية لأنساق التوجيه الدينى، وتنبعث هذه النتيجة بوضوح من سلسلة دراسته المقارنة فى علم الاجتماع الدينى)[١].

فلقد أكد فبر فى علم اجتماعه الدينى أن المعتقدات الدينية هى القوى الدافعة للتغير الاجتماعى، ففى رأيه لا شىء أثر فى مجرى التاريخ الإنسانى بأسلوب ثورى كما فعلت الديانات العالمية الكبرى من حيث النتائج الاجتماعية لتعاليمها. فقد اعتبر فبر أنها تنتمى للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

إذ يعتبر فبر أن انبعاث ديانة جديدة فى مجتمع يحدث كسرا كبيرا وهاماً للنمو التاريخى، وذلك أنه (إذا انبعث مجتمع دينى فى ظل نبى أو داعية مخلص، أو لا يقع الضبط للسلوك المعتاد فى أيدى الخلفاء المؤهلين بمواهب والتلاميذ وأتباع النبى أو المخلص. وكقاعدة يقف النبى أو المخلص شخصياً فى تعارض مع القوى التقليدية المقدسة للسحرة أو الكهنة)[٢].

(إن النبى فى هذه الحالة يضع إلهامه الشخصى Personal charisma فى صراع ضد مراكز السحرة والكهنة المؤسسة، ومقاماتهم المؤيدة بالتقاليد، بهدف تحطيم قوتهم أو إجبارهم على اتباعه)[٣].

ولهذا يعتبر فبر أن حالات الديانات النبوية عاشت ليس فقط فى حالة حادة من التوتر بل ودائمة بالنسبة للمجتمع الذى تظهر فيه. وتزداد حدة هذه التوترات كلما زادت الديانات صدقًا كديانات إنقاذ. ويتضخم أيضًا التوتر كلما كانت الأخلاق أكثر رشدا rational، وكلما زاد توجيهها للقيم المقدسة كوسيلة للخلاص.

ويبدو أن دراسات فبر فى الديانات وخاصة السماوية جعلته يكتشف العنصر الفعال أو الديناميكى فى النبى. وأطلق على هذا العنصر اصطلاح الإلهام Charisma

---

(1) Parsons, T.: "Evaluation and Objectivity in Social Science: an interpretation of Max Weber's Contobution" International Social Science Journal, Unesco, Volume VII 1965, P. 59.

(2) Gerth and Mills: From Max Weber. P. 327.

(3) Ibid. : P. 328.

(فمفهوم الإلهام كمنبع للحركات الروحية ذات الكثافة العظمى، وجد مناسبًا لوصف الظواهر العالمية)[1].

وعمل فبر على توسيع مفهوم الإلهام ونقله من المتن الدينى إلى الحياة الإنسانية بأسرها. فالقواد الملهمين عنده، هم أولئك الذين يتبعهم من هم فى كرب وشدة ويكونوا فى حاجة إلى اتباع قائد لاعتقادهم فيه أنه ذو مؤهلات فوق العادة.

وإن كان فبر يؤكد على سيادة الرجل الملهم، فإن فبر لم يقلل من ميكانيكيات النظم، ومن ناحية أخرى لا يعنى ذلك تفسيره ما هو اجتماعى بما هو سيكولوجى، وخاصة مفهوم الشخصية. (فقد كان فبر يرى فى مفهوم الشخصية فكرة سيئة الاستعمال جداً، إذ تشير إلى مركز لا عقلى للإبداع، مركز يتوقف عنده البحث التحليلى)[2]. ولهذا كان فبر ينظر دائمًا إلى الفرد فى متن اجتماعى، (فبالنسبة لعقل الفرد، المعنى والحصول على المعنى لظواهر العالم كانت دائمًا مسائل يقررها الفرد فى اختياره الحر بين مختلف الأرباب)[3].

وهكذا كان موقف فبر العقلى واضحًا أثناء عملية نقده لبناء فلسفة التاريخ فى عصره، فعنده الفرد يفوق ويعلو العالم التجريبى، بواسطة قدرته على أخذ موقف عقلى فيما يختص بالعالم، وأن يختار بين القيم المختلفة، ويستطيع الفرد قيادة أفعاله إلى أعلى المثل.

فعند فبر الأمانة العقلية كانت فى عملية الانتخاب العظيمة التى تجريها الشخصية للاختيار بين القيم. فلقد كان يعتبر أن قانون الحياة لأى نمط عقلى كأسلوب للحياة، هو عبارة عن اختيار مسئول من بين مختلف مجموعات القيم التى تقدم نفسها فى أى وقت. فعملية الحسابات الرشيدة للدافع والنتائج، أى عملية الاختيار، ترفع الشخصية فى ذاتها فوق الطبيعة السفلية الغريزية النامية بلا فروق. واعتبر أن هذا هو العمل الحقيقى لكل العلوم، فعملها هو مساعدة كل فرد فى جلاء أفكاره عن المعنى النهائى لأفعاله، بإبلاغه عن الوسائل المناسبة لتحقيق

(1) Memmsen, Wolfgang: "Mav Weber's Political Sociology and his Philosophy of World History" International Sociology: op. cit. P. 33.

(2) Greth and Mills: op. cit. P. 55.

(3) Memmson: op. cit. P. 28.

مثله، وقبل كل شيء، توضح له الآثار المحتملة لهذه الوسائل على المثل المتنافسة وتضع أمامه النتائج الكاملة لقراراته.

ومن ثَمَّ فجوهر الشخصية عند فبر هو فعل عقلى رشيد فى خدمة الأهداف الأساسية، ومهما كانت هذه الأهداف شخصية خالصة فى الأصل، فإنها تنتمى للمجالات الرفيعة للشخصية. وهذه المجالات الرفيعة تقف فى تعارض مع العمليات العقلية للعالم الجامد. ومن ثَمَّ يقوم صراع مستمر بين المبادئ المتعارضة، وفى الوقت نفسه ينعكس هذا الصراع فى الواقع الاجتماعى، فى التضاد بين الرجل الثقافى والرجل التكنيكى. فالشخصية المبدعة التى تحمل وتوجه نحو قيم تعتبر خيالية بالنسبة للواقع الاجتماعى، ولهذا تكون حرة من شروط البيئة (وخاصة التقاليد)، ومن ثَمَّ تكون فى صراع مستمر مع الرجل التكنيكى (أى الرجل المحكوم بالآلة) والرجل النظامى (أى الرجل المحكوم باللوائح والقوانين)، أولئك الذين تحدد الظروف الموجودة أفعالهم. هذه الشخصية المبدعة ذات الديناميكية الاجتماعية التى تظهر عندما تتجمد أشكال الحياة الروتينية وتثبت عدم إشباعها وعدم كفاءتها للسيادة على حالة نامية من التوتر والمعاناة، وضع فبر لمثل هذه الشخصية مفهوم الإلهام. وهكذا نجح فبر فى انتزاع مفهوم الشخصية من متنه السيكولوجى وأقامه على أساس اجتماعى.

وبذلك يصبح الإلهام charisma عند فبر عبارة عن شكل من الطاقة الروحية تؤدى إلى انبعاث مثل أخرى غير الموجودة فى المجتمع الذى يظهر فيه الشخص الملهم. ومن ثَمَّ تضاد بشدة حقائق الحياة اليومية، ولهذا إما أن تصبح ثورية أو أن يتخلص منها المجتمع سريعا. هذا التوتر بين القيم التى يبشر بها الشخص الملهم وبين الواقع اليومى يتصف بالحدة المتناهية، فهو موقف يتمثل فى التعارض بين الحياة اليومية للنظم القديمة وبين الطبيعة التلقائية للقائد الملهم، أى الروتين ضد المشاريع الإبداعية وتقاليد الناس العاديين ضد الحرية الداخلية للرجل الملهم الصاعد وغير العادى، والقواعد النظامية ضد الفرد المنبعث.

ولكن هذا الموقف لا يتضـمن ثباتًا أو دوامًـا، لأن الإلهام فى الأيام الأولى ربما يحرك أتباع بطل مـحارب أو نبى تحت تأثير الحماس والإخلال الذى حـركه القائد الملهم عند الناس للتـخلى عن أنماطهم وتقاليدهم الموروثـة من أجل الأفكار والقيم التى أعلنهـا، فإذا أريد لهذه الأفكار والقـيم دواما وثباتًا فـلابد من إجراء عـملية اجتماعية وهى تحويل هذه القيم إلى أشكال وأساليب فى الحياة اليومية. ولما كانت هذه القيم بالمقـارنة مع ظروف الحياة اليومـية عبارة عن يوتوبيـا، فمن ثَمَّ فى بدء الحركـة، يصبح أى تفكير عـن التكيف والتكامل مع الظروف الموجودة غـريبًا عن طبيعتها، ولهذا لا يسأل الأتباع عن النتيجة، ولكن يكافحون بالاقتصار على طاعة وصايا القائد الملهم، وذلك هو السـبب فى أن حركات الإلهام Charisma ثوراتها تنتمى للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

وقد وصف فبر تأثير الإلهام فى الآتى: (تـؤسس قوة الإلهام على الاعتقاد فى بطل ملهم. وعلى الاعتقاد العاطفى لأهميـة وقيمة إعلان ديانة أو أخلاق أو فـن أو علم أو سياسة أو من أى نوع آخر، وعلى بطولة سواء نسكية أو حربية، وعلى حكمة قانونية وعلى هبات إعجازية أيّاً كانت، وينشدون تشكيل الأشياء والمواقف طبـقًا للإرادة الثـورية - من الداخل- من مـركز فى العـقل السـائد تعلن قوتهـا الثـورية. ومن ثَمَّ فهى تـقف فى تضاد حـاد لأى نظام تقليـدى أو بيروقـراطى، وكقـاعدة تدمر قوة الإلهـام النظام إذا لم تستطع تطويعـه لاتباعها، فـالإلهام هو بصفة خاصة قوة التاريخ الثورية المبـدعة. ويتركب تأثيرها الثورى من قدرتها على تحوير المعـتقـدات والاتجاهات نحـو كل شىء فى الحيـاة والعالم. فلقـد وجد أن تأثيرات مـختلف الأخـلاق الدينية على وعى الفـرد، وهى حالات خاصـة بهذه الظواهر العالمية)[1].

ويتبين من هذا أن فبر يدحض آراء ماركس، إذ كان فبر يؤكد دائمًا على أن كل أخلاق دينيـة يجب على الأقل فى مسلماتهـا العليا، أن تشتق أصولهـا من جذور دينية خالصة، وليست متأصلة فى اعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية، ولقد عارض فبر بشدة الهراء الماركسى من أن الدين كـان مجرد بناء أعلى أيديولوجى يرقد فوق

(1) Memmsin: op. cit. P. 33.

الظروف الاقتصادية، ذلك يؤدى إلى عنصر جوهرى فى المفهوم التاريخى الفلسفى عند فبر، وهو أن المعتقدات الدينية -فى شكلها الأساسى- أى الإلهام الدينى لأفراد قديسين وأنبياء هى القوة الدافعة الأساسية للتغير الاجتماعى.

وقد كرس فبر جزءًا كبيرًا من عمله الاجتماعى للكشف عن العمليات التى تجريها ظهور كريزما دينية، ولقد بذل جهدًا كبيرًا فى تأسيس خطوط جديدة للتطور التاريخى.

واعتبر فبر أنه لم تكن قوة المصالح المادية الموجودة كافية للتطور التاريخى، إنما فى رأيه ما كان مطلوبًا لإحداث التغيرات والتطور التاريخى، هو تأملات القوى الروحية من المنطقة السامية عند كريزما دينية، ولم يشأ فبر أن يترك مفهومه ليفهم بمعنى جدلى، ولكن اعتبر أن المصالح -مادية ومثالية- وليس الأفكار، التى تحكم مباشرة أفعال الناس، ومع ذلك فوجهات النظر للحياة التى أبدعتها الأفكار كانت عادة توضح الخطوط التى طبقًا لها تقود القوة الديناميكية للمصالح الفعل، ويقرر فبر أن ما يحدد وجهات النظر للحياة هو ما يرغب الإنسان فى أن يكون عليه أو ما يرغب الإنسان الحفاظ عليه، وتتضمن هذه الفكرة معارضة صريحة وهدمًا قويّاً لوجهة نظر الماركسية التى تقرر أنه ليس إدراك الناس هو الذى يعين معيشتهم ولكن معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين إدراكهم.

الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

أراد فبر أن يثبت تهافت النظرية الماركسية التى تدعى أن النظام الاقتصادى هو المحرك والمغير للحياة الاجتماعية، فقد استطاع فبر أن يكشف عن أن أفكارًا معينة تكمن وراء شكل معين من الفعل الاقتصادى.

ففى علم الاجتماع الدينى كشف فبر عن أثر السلوك الموجه بالدين على النظام الاقتصادى، وابتدأ هذا البحث بدراسة أثر ظهور الدين فى مجتمع، فأول ظاهرة يصطدم بها هى ظاهرة القرابة، والمعروف أن علاقات القرابة أشد أنواع العلاقات مقاومة، ورغم ذلك وجد فبر أن علاقات الأخوة الدينية بين النبى والأتباع تخفض

من قيمة علاقة القرابة، إذ أنه على المعتنق للدين الجديد أن يقف وبصفة نهائية أشد التصاقًا بالنبى وأخوته فى الدين (ذلك يعنى أنه فى داخل المجتمع الجديد أنشأت الديانة النبوية أخلاقًا دينية للأخوة، هذه الأخلاق ببساطة اضطلعت بالمبادئ الأساسية للسلوك الاجتماعى والأخلاقى الذى منحه اتحاد الجوار، سواء أكان مجتمع فلاحين أو أعضاء قرابة دموية، أو أعضاء طائفة، أو الشركاء فى الملاحة والصيد، فعرفت تلك الجماعات عنصرين أساسيين: الأول: ثنائية أخلاق الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية، ثانيًا: أخلاق الجماعة الداخلية، ونتيجة لهذه المبادئ فى الحياة الاقتصادية، فبالنسبة لأخلاق الجماعة الداخلية وجد الواجب الأساسى للأعضاء وهو المساعدة الأخوية فى الأزمات، وأجبر الغنى والنبيل على الإقراض بدون فوائد وإعطاء السلع لمنفعة الفقراء الذين لا يملكون وإعطاء السلف بدون مصلحة، ونشر الضيافة والمعونة بدون مقابل، وبدون تعويض آخر غير المعاونة، كل هذا نتج من مبدأ احتياجك اليوم قد يكون احتياجى غدًا، هذا المبدأ لم يكن بالطبع موزونًا عقليّاً (اقتصاديّاً)، ولكن أدى دورًا فى المشاعر، وتبعًا لذلك كانت المساومة فى مبادلة السلع ومواقف التسليف مثل الاسترقاق الناتج عن الديون مقصورة على الجماعة الخارجية)[١].

وفى بحثه عن الطوائف البروتستانتينية وروح الرأسمالية، يكشف فبر عن أثر الدين فى توجيه العلاقات الاقتصادية، فقد لاحظ أنه رغم الفصل الشديد بين الدولة والكنيسة فى الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث يعتبر سؤال المواطن عن ملته ضد القانون، ورغم أنه توجد أعباء مالية كبيرة على المنتمين للكنيسة عن مثيلتها فى أوربا، ومع ذلك كان يوجد ٩٩٪ ينتمون للكنيسة، وكذلك كان سؤال المواطن إلى أى كنيسة ينتمى، يحدد مدى الثقة فيه، وكان السؤال يسئل بصراحة وبلا خجل. وعلى ذلك (إذا نظر الإنسان فى الحالة فى الولايات المتحدة، يمكن للإنسان أن يرى بسهولة أن السؤال عن البنوة الدينية كان دائمًا يوضع فى الحياة الاجتماعية وحياة الأعمال التى تعتمد على علاقات دائمة وائتمان وتصديق)[٢].

(1) Gerth and Mills: op. cit, P. 329.

(2) Ibid.,P. 303.

وأورد فبر فى بحثه ملاحظات كثيرة رآها بنفسه، وأهمها ملاحظتان:

(الأولى عن بائع مسافر معه فى القطار يذكر لفبر دون أن يسأله، أن كل فرد قد يعتقد أو لا يعتقد كما يحب، ولكن إذا رأيت فلاحًا أو رجل أعمال لا ينتمى إلى أى كنيسة على الإطلاق، لن أثق فيه فى خمسين سنت، ثم يقول البائع: لماذا يدفع لى إذا كان لا يعتقد فى شىء»[1].

والملاحظة الهامة الثانية يذكر فبر فيها (أنه حضر حفل تدشين لأعضاء من طائفة البابتست وفى هذا الحفل رأى أعضاء الطائفة وقد أتوا من أماكن بعيدة إلى مكان التدشين، وهو عبارة عن حوض ماء يغذيه نهير صغير ينحدر من الجبال الزرقاء، وكانت باردة ومتجمدة، ورأى القسيس فى حلة سوداء غارقًا فى هذا الحوض حتى صدره. ورأى حوالى عشرة أشخاص فى أبهى حلل يوم الأحد، وخطوا فى البركة واحدًا وراء الآخر، واعترفوا بعقيدتهم البابتستية وغاصوا تمامًا ثم وقفوا مرتعشين يرتجفون فى ملابسهم المبللة، وخرجوا من البركة وهنأهم كل الحاضرين، وكان أحد أقارب فبر معه، وأشار إلى رجل كان غارقًا فى البركة، وقال له: انظر إليه لقد قلت لك ذلك، ولما سأله فبر، لماذا توقع قدومه؟ أجاب قريبه: لأنه يريد افتتاح بنك فى مدينة M، فسأله فبر هل هناك بابتستيون عديدون حوله حتى يمكنه أن يعيش؟ فأجابه قريبه: ليس على الإطلاق، ولكن مجرد أن يصبح بابتست سوف يحصل على رعاية وتأييد كل المنطقة وسوف ينتصر فى المنافسة على كل واحد»[2].

وأورد فبر ملاحظات أخرى كثيرة من هذا النوع، مما دفعه إلى تحليل هذه الظاهرة. ولقد وجد أن الانتماء إلى طائفة دينية معروف لدى المجتمع على أنه ضمان مطلق للكيفيات الأخلاقية للرجل، وخاصة تلك النوعيات المطلوبة للأعمال، وبذلك يضمن الانضمام إلى طائفة البابتست تسليم كل الإقليم وتصديق غير محدود وبلا أى منافسة، (فبصفة عامة هؤلاء الرجال الفنيين الذين نجحوا فى الأعمال هم أولئك الذين ينتمون إلى ميثودست Methodist أو بابتست أو الطوائف الأخرى)[3].

---

(1) Ibid.,P. 303.

(2) Ibid.,P. 304.

(3) Ibid.,P. 305.

وقد بحث فبر عن سبب تصديق الناس لعضو الطائفة، فوجد أن الطائفة أولاً متمسكة بالتقاليد الدينية، ومن ثَمَّ فهى لا تسمح بالانضمام لعضويتها إلا بعد استفسار دقيق عن السلوك، قد يمتد إلى الوراء إلى عهد الطفولة، ومن ناحية أخرى أن عضو الطائفة إذا وقع فى ضائقة اقتصادية نتيجة خطأ لا إرادة له فيه، فإن الطائفة تنظم وترتب له أموره، فتعطيه ضمانات لدائنيه وتساعده بكل أسلوب، ومن ثَمَّ يصبح توقع الدائنين والمتعاملين مع عضو الطائفة، الاطمئنان، مما يجعلهم يدفعون إليه بأموالهم لاستثمارها دون خوف، إذ أن الطائفة من أجل مكانتها وهيبتها سوف لا تسمح بأن يعانى الدائنون أى خسائر بسبب عضو الطائفة الذى وقع فى خطأ لم تعتبره الطائفة حاسمًا بالنسبة لفرصه فى النجاح، إذ المفروض أن الطائفة التى تعتبر نفسها ذات سمعة حسنة، لم تقبل فى عضويتها إلا شخصًا ذا سلوك جعله مؤهلا أخلاقياً، ومن ثَمَّ فإن عضوية الطائفة تعنى شهادة عن كفاءة أخلاقية، وخاصة أخلاق الأعمال عند الفرد)[1]. ويعتبر فبر أن هذا عكس العضوية فى الكنيسة التى يولد فيها الفرد وتضع بركتها على الصالح وغير الصالح، فالبنوة الكنسية هى فى الأصل إجبارية، ومن ثَمَّ لا تدل على شىء بالنسبة للكيفيات ونوع العضو، ولكن الطائفة هى اتحاد اختيارى للمؤهلين دينياً وأخلاقياً، وبالتالى: (الطرد من الطائفة لفرد بسبب جرائم أخلاقية يعنى اقتصادياً خسارة الضمان والتأمين، واجتماعياً الخروج من الطبقة)[2].

وقد كرس فبر جهداً كبيراً للكشف عن أصل هذه الظاهرة وتطورها، فيذكر أنه فى القرون الوسطى كان المسيحيون هم فقط المواطنون بالكامل، وكان الحرمان من عضوية الكنيسة له أيضًا نتائج سياسية، ولما أصبحت أوربا كلها مسيحية، وترعى الكنيسة الصالح وغير الصالح، تطورت المسألة إلى مبدأ من مبادئ المسيحية، وهو المحافظة على نقاء العشاء الربانى، ويتبع ذلك قضية من له الحق فى اختيار أو طرد فرد من العشاء الربانى لضمان طهارته، ويذكر فبر أن هذه القضية شغلت أوربا خلال القرن السابع عشر، وعند نشأة الطوائف الدينية وخاصة البيوريتان، اعتبرت

(1) Ibid.,P. 305.

(2) Ibid.,P. 306.

نفسها مسئولة عن نقاء العشاء الربانـى، ووضعت أسسًا للاختيار لعضوية الطائفة، تضمن بها أن لا ينضم لعضـويتها إلا الأفراد ذوى النوعيات والكيفـيات الأخلاقية الدينية التى تؤهلهم لحضور العشاء الربانى، ويذكر فبر أنه دار الصراع خلال قرون بين المبدأين، الأول الخاص بالكنيسة كاتحاد إجـبارى لإدارة عملية الصفح والبركة، والثانى الخاص بالطائفة كاتحاد اختيارى لأشخص مؤهلين دينيّاً.

ويركز فبر الانتباه على أثر مبدأ الاختيـار ونتائجه العملية الهامة فى التأثير على السلوك، بالإضافـة إلى الفكرة الحاسمة لحـفظ العشاء الربانى نقـيّاً، ومن ثَمَّ طرد الأشخاص غيـر المتطهرين، قادت فبر إلى معاملة نظام الكـنيسة على أنه فشل فى تشكيل طوائف، واعـتبـر أن البـيوريتـانيين القـدمـاء هم الذين اقتـربوا من نظام الطوائف.

فلقد كان نظام كنيسة البيوريتـان والطوائف يعمل من خلال فكرة ضرورة حاجة الفرد لامتلاك مقدراته، وكان نظام يربى ويختار النوعيات، فعضو الطائفة عليه أن يكون لديه نوعيات من نوع مـعين لدخول دائرة المجتمع، كـون الفرد حائزًا لتلك النوعيات، كان مهمّاً لنمو الرأسمالية الحديثة الرشيدة، إذ لكى يحافظ العضو على مصـيره فى هذه الدائرة، عليه أن يثـبت باستـمرار أنه حائز على هذه النوعـيات، وأنها متولدة فيه باستمـرار وثبات، وطبقًا لكل الخبرات لم يكن هناك وسائل أقوى لتربيـة السمات من تربيـتها خـلال ضرورة أن يثبت الفـرد ذاته فى دائرة اتحاداته، ولذلك كان النظام الأخلاقى المستمـر والمؤدب العنيف للطائفة، مرتبط بنظام سلطة الكنيسة البيوريتانية كتربية واخـتيار رشيد، وذات علاقة بالمسموحات والممنوعات. ووضعت الطوائف البيوريتانية فكرة اهتمام الفـرد بالاحترام الاجتماعى كأعظم قوة فى خدمـة تربية تلك السمـات. وبذلك وضعت الدوافع الفردية والمصـالح الذاتية للشخص أيضًا فى خدمـة المحافظة على الأخلاق البيوريتانيـة البرجوازية ونشرها، ويقوم هذا الأسلوب فى التربية على أسـاس المكافآت المقررة على السلوك. وتعمل هذه المكافآت من خلال شكل وظروف الوسـائل الخاصة بالخلاص، فكانت توضع المكافأة على إثـبات الذات أمام الرب بمعنى الحـصول على الخـلاص، الذى يوجد

عند كل الطوائف البيوريتانية، والثانى إثبات الذات أمام الناس، بمعنى تملك مصير الذات اجتماعـيّاً فى داخل طائفة البيوريتان، كل من المظهرين مـتبادلين ومتكاملين ويعملان فى نفس الاتجاه، فهما يساعدان على إعطاء روح الرأسمالية الحديثة.

ذلك بالإضافـة إلى أن هذه الطوائف شكلت أحد أهم الأسس التاريخيـة لنزعة الفردية الحديثة التى تعتبر الحجر الأساسى فى المذهب الرأسمالى الحديث، ويتضح من ذلك أن فـبر يركـز ليس على المذهب الأخلاقى لـلديانة فى ذاته، ولكن على ذلك الشكل من السلوك الأخلاقى الناتج عنه، ذلك السلوك عند البيـوريتانيين كان أسلوبًا للحياة معين ومنهجى وعقلى، مهد الطريق لروح الرأسمالية الحديثة.

وأيضًا فى بحثه عن الخلفية الدينية لتلك الطوائف البروتستانتينية، وجد فبر فى وثائقهم الأدبية، ما يؤيد أثر المبادئ الدينية لهذه الطوائف فى نشأة روح الرأسمالية الحديثة. فلقد وجد فى وثائق الكويكرز Quakers والبابتست تكرارًا وتركيزًا على حقـيقـة أن الخطيئـة ابنة العالم تعـمل على فقـد الثقـة فى الأعمال بيـن الواحد والآخـر، ولكن لهم ثقة فى الاسـتقـامة الدينـية للمـتدين، ولهـذا أعطى الناس الائتمان وأسلموا أموالهم فقط للمتدينين، وأجروا عمليات الشراء فى حوانيتهم، لأنه هناك، وهناك فـقط، يجدون الأثمـان المحددة والأمينة، وكـما هو مـعروف يقول دائمًا البابتستيون أنهم أول من رفع سياسة تحديد السعر إلى مبدأ، وبالإضافة للبابتست، أعلـن الكويكرز صيحة تكشف عنها الفـقرة التالية التى جـذبت انتباه فبر، عثر عليها زمـيل له فى البحث فى وثائقهم (فلم يكن الأمر يتعلق بالقانون، إذ كان يتمسك الأعضاء الأوائل بكلماتهم وارتباطاتهم إذ يعتبرونها مقدسة.. هذه السمـة لوحظ أنها صـادقة لديهم فى أعـمالهم التـجارية، وعند بداية ظـهورهم كمجتمع، عانوا كثيرًا كـرجال تجارة، لأن الآخرين استاءوا من أحوالهم الخاصة، إذ أخذوا زبائنهم من حوانيـتهم، ولكن بعد قليل كانت الصيـحة العظمى ضدهم أنهم أخذوا تجاره البلاد فى أيديهم، نشأت هذه الدعوى جزئيّاً من تحررهم الشديد من التعـقيـدات التجارية بيـنهم وبين الآخرين، وكليـة لأنهم لم يطلبوا سـعرين للسلع التى يبيعونها)[1].

(1) Ibid.,P. 312 - 313.

وكذلك وجد فبر، أن هذه الطوائف تعتقد فى أن الرب يبارك ويتفضل بالغنى على من يسره خلال التضحية أو خلال نوع سلوكه، وحولت الطوائف البروتستانتينية تلك الفكرة إلى مجال العمل، فكانت أحد مبادئ الرأسمالية المبكرة - وهو الأمانة خير وسيلة- هذه العلاقة بين المبدأ الدينى والمبدأ الرأسمالى كانت توجد عند كل الطوائف، ولكن كصفة متميزة ومستمرة وثابتة، فإنها توجد فقط عند البروتستانت.

يعتبر فبر أن (كل النمط الأخلاقى البرجوازى كان شائعًا منذ البادية عند كل طوائف التقشف، وهى متماثلة ومتطابقة للخلق الذى تمارسه الطوائف فى أمريكا فى الوقت الحاضر.

مثلا الميتودست Methodists يحرمون الآتى: ١- المساومة أثناء البيع والشراء، ٢- البيع بالأجل، ٣- جعل معدلات الربح أعلى مما يسمح به قانون البلاد، ٤- حشد الكنوز فى الأرض (أى عدم تحويل رأس المال السائل إلى الاستثمار فى السندات الحكومية)، ٥- الإقراض بدون التأكد من قدرة الإنسان لإعادة دفع الدين، ٦- الكماليات من كل نوع)[1]. وإلى جانب هذا الخلق هناك المكافآت الاجتماعية والأسس التنظيمية للطائفة الدينية.

وكانت هذه الاتحادات، بصفة خاصة، المراكب النموذجية للارتقاء الاجتماعى فى دائرة رجال الأعمال من الطبقة المتوسطة، إذ يعنى الانضمام إلى الطائفة أنه رجل مختبر أخلاقيّاً يستحق الائتمان، ويذكر فبر أنه يمكن بسهولة ملاحظة أن فرص العمل كانت غالبًا تتأثر بصفة حاسمة بهذا التصديق الشرعى. ومن ثَمَّ عملت هذه الطوائف على حفظ وانتشار روح أعمال البرجوازيين الرأسماليين بين شريحة واسعة من الطبقة المتوسطة، فالطبقة المتوسطة، لا سيما الشريحة الصاعدة، كانوا حملة هذا الاتجاه الدينى الخاص، والذى يمكن للفرد ملاحظته بينهم كمحدد لفرص النجاح، ويذكر فبر أنه معروف جيدًا، أن كثيرًا من المؤسسين الأمريكان بل معظم رؤساء الصناعة والأقطاب الموثوق بهم ينتمون رسميّاً للطوائف وخاصة البابتست.

(1) Ibid.,P. 313.

ويذكر فبر أن الإمعان الدقيق يكشف التقدم المتواصل لصفات عملية التحول للعلمانية فى الزمن الحديث، التى استسلمت لها كل الظواهر التى نشأت فى مفاهيم دينية، وليس فقط الاتحادات الدينية، والطوائف الدينية، التى كان لها تأثير كبير على الحياة الأمريكية ورغم أن الاهتمام الكنسى كان يتدهور بسرعة، ورغم أن كثيرًا من هذه الظواهر بدت وكأنها تتفكك بسرعة وخاصة فى المنظمات الدينية، ومع ذلك يوجد لها رواسب ما تزال حية فى عديد من الميادين، فلقد ظلت صفة الائتمان لعضو الطائفة ثابتة.

فأصبح -١٩٠٦- نوع من الطوائف التى ينتمى إليها الفرد هى بالأحرى لا يعنيها الأمر سواء أكان الفرد ماسونى أو مسيحى علمانى أو أدفنسنت أو كويكر أو لا شىء، ما هو حاسم، أن يسمح الاقتراع بعضوية الفرد، بعد اختبار وتجربة أخلاقية فى مفهوم الفضائل المرغوب فيها للتقشف البروتستانتى، ومن ثَمَّ للتقاليد البيوريتانية القديمة، ولهذا يمكن ملاحظة نفس الأثر لعملية الاختيار.

وهكذا، أصبحت للطوائف الدينية والاتحادات الكثيرة الخاصة المشابهة والنوادى فى أمريكا، المؤسسة على عملية التجميع عن طريق الاقتراع، لها أهمية سياسية واجتماعية، حتى أن الحياة الكلية لليانكى النموذجى من الجيل الماضى سارت خلال سلسلة من هذه الاتحادات، مبتدئة بنادى الأولاد فى المدرسة، ومتقدمة إلى نادى رياضى أو لأى نادى طلابى من أى نوع، وإلى الأمام إلى أحد من النوادى المشهورة لرجال الأعمال والبرجوازيين، وأخيرًا إلى نادى أغنياء منطقة المتروبوليتان.

ويعتبر فبر أن كثيرًا من هذه النوادى الحاملة لتلك الاتجاهات تقود نحو جماعات المكانة العالية التى تميز النمو الأمريكى المعاصر، وتنمو هذه الجماعات المكانية إلى جانب الثراء المجرد، وبشكل أكثر فى تعارض معه.

ففى أمريكا مجرد النقود فى ذاتها تشترى القوة أيضًا، ولكن ليس الشرف الاجتماعى، بالطبع أن النقود وسيلة لاكتساب المهابة الاجتماعية، لقد كان التقليد القديم فى أمريكا يحترم الرجل العصامى، وكان الطريق إلى الشرف الاجتماعى

يعتـمد على البنوة لكنيسـة، وأخوة مهذبة فى كليـة متمـيزة، ورسميّـاً مع طائفة ممتازة، فى الوقت الحاضر بدلاً من البنوة لطائفة، أصبح الانتـماء لنادى متميز أمر جوهرى. منذ الماضى وحـتى الحاضر الصفـة الدقيقة للديمـقراطية الأمريكيـة أنها مركب من الاتحادات الخاصة جداً، ولكن الاخـتيارية، ومن يريد أن يكون معروفًا فى هذه الديمقراطيـة، فى أى مركز كان، ليس عليه أن يتطابق مع تقاليـد مجتمع برجوازى فقط، ولكن كقاعدة عليه أن يكون قـادرًا على إظهار نجاحه فى اكتساب القبـول بواسطة الاقتراع لأحد الطوائف أو النوادى أو مـجتمعـات الأخوة، وليس المهم من أى نوع كانت المهم أنه مـعروف أنها تصديق شـرعى كاف، وذلك الـذى لا ينجح فى الانضـمام أو يتـجاهل فـعل ذلك، عليـه أن يأخذ الطريق الصـعب وخاصة فى الحياة العملية.

وعلى هذا يصبح المركز الحديث للنوادى الدنيوية والمجـتمعات التى تحصل على أعضائها عن طريق الاقتراع، هى إلى حد كبير نتيجة عملية للتحول إلى العلمانية، وتشتق مراكزها من الأهمية الخاصة للـنموذج الأصلى لهذه المؤسسات الاختيارية، أى الطوائف الدينية.

نظريته فى الطبقات

يتضـمن بحث فبر عن أثر الطوائف البـروتستانتينيـة وروح الرأسمالية، تركـيزًا على عملية الاختيار القائمة علـى أساس اختيار دينى وأخلاقى، ذلك عندما كانت الطوائف الدينية تسود المجتمع الأمريكى، وعند تطورها نتيجة عملية العلمانية إلى اتحادات ونوادى، احتفظت هذه الأنواع الأخيرة بالسمات الرئيسية لعملية الاختيار، فأصبحت عمليـة الاقتراع تقوم بنفس الدور لضمان كفاءة لعضـو وأهليته لعضوية الجماعة، وظلت هذه العضوية تحمل السمات الرئيسية لعضوية الطوائف الدينية فى الماضى، أى التصديق الشرعى بكفاءة العضو وأهليـته للائتمان، ومن ناحية أخرى تعتـبر تأييدًا فى مـجال الأعمـال، أى تعضـيدًا له فى موقـفه الاقتـصادى، وهذا يتضمن زيادة فـرص الحياة. ويعتبر مفـهوم فرص الحياة من المفاهيـم الأساسية فى تحديد الموقف الطبقى.

وإذا كان أسلوب التوزيع للممتلكات المادية يحدد فرص الحياة فى سوق المنافسة كما يذهب إلى ذلك كل من ماركس وفبر، فإن هذه الممتلكات المادية والحصول عليها تأثرت بشدة بعملية الترشيد البروتستانتى للمجال الاقتصادى، إذ أن عملية الترشيد دفعت أعضاء هذه الطوائف للإقلال من السلع الاستهلاكية، وعدم تجميد رؤوس الأموال، مما أدى إلى سرعة تراكم رؤوس الأموال لديهم، ومن ناحية أخرى مبدأ بذل أقصى جهد فى العمل إذ النجاح فى مجال الأعمال يباركه الرب ودليل على رضاه، يؤدى بالتالى إلى زيادة الممتلكات المادية، التى تؤدى بدورها إلى زيادة فرص الحياة، وزيادة القدرة على المنافسة فى السوق، كل هذا يكشف بجلاء عن أثر الأفكار فى توجيه الفعل الاقتصادى، والأهم فى تحديد الموقف الطبقى، وأيضًا فى عملية الحراك الاجتماعى.

وهكذا يمكن القول أن فبر فى دراسته للعضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد كشف عن التداخل الشديد بين المكانة الاجتماعية والموقف الطبقى، وفى دراسته لأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بالمجال الاقتصادى كشف عن أثر الأفكار فى الحراك الاجتماعى وبالتالى فى تحديد الطبقة.

فإذا كان الموقف الطبقى يحدده بدقة الموقف الاقتصادى كما يذهب إلى ذلك ماركس، فإن فبر أفصح عن التداخل الشديد بين ذلك الموقف، وموقف آخر هو موقف جماعة المكانة الاجتماعية المشتق من العضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد، أى العضوية فى جماعة مكانة، وهذا الموقف الأخير يحدده تقييم اجتماعى، ويقوم فى أساسه على عنصر لا مادى وذاتى.

ويعتبر فبر أنه بهذا العمل قد استطاع أن يمزج بين النظريتين الاجتماعيتين المتقابلتين، وهما النظرية الذاتية والنظرية الموضوعية عن التدرج الطبقى، فالاقتصاديين الكلاسيك الإنجليز وخاصة ريكاردو Ricardo، والذى أخذ عنهم ماركس يمثلون النظرية الموضوعية، فوصفوا الطبقة فى مصطلحات من الدخول، ومن ثَمَّ يتكون البناء الطبقى من مالك الأرض وصاحب المشروع والعامل، لا يهم ما إذا كانت تدرك الطبقة شيئًا عن موقفها أم لا، فموقفهم الطبقى قد حدده بدقة

موضعهم ووظيفتهم فى داخل النـظام الاقتصادى الموضوعى، وإن كان ماركس لم يقف عند هذا الحد فقد أضاف وجهًا جديدًا تاريخيّاً، بإبراز الطبيعة الخاصة الحديثة للطبقات البرجوازية والبروليتاريا.

أما النظرية الذاتية للطبقات، فقد وضعت أهمية كبرى على السمات النفسية لأعضاء الطبقات الاجتماعية، فمفاهيم الاحترام والشرف الاجتماعى والعناصر التصورية للآراء السياسية والدينـــية والمـشاعر المتـعلقة بأسلـوب الحياة المحـليـة أو الإقليمية ظهرت فى تلك النظريات لتحل محل النظريات الصارمة الجامدة للاقتصاديين.

ويلاحظ أن تشكيل «جمـاعة المكانة» يعزى إلى فكرة يتـمسك بها بصفـة عامة أعضاء الجماعة، هذه الفكرة بدورها لها نتائج اجتـماعية واقتصادية حيوية. وبالمثل تشكيل جماعة الطبـقة يحدده الموقف الاقتصادى الذى يشارك فيـه الجماعة، وهذا الموقف المادى المشترك، يتشكل أساسًا من تأثيـر الأفكار بين أعضاء الجماعة، تلك الأفكار تكون كامـنة، وكمونهـا لا ينفى وجودها، إذ تظهر واضـحة جليـة عندما تتوفر لها قيادة توجهها نحو أهداف، إذ يعـتبر فبر (أن درجة انبعاث الفعل المشترك وربما الفعل الاجتـماعى من الأفعال الجمعـية لأعضاء طبقة هى مـتعلقة بالظروف الثقـافية العـامة، وخاصـة تلك التى من النوع العقلى، وهـى أيضًا متـعلقة بمدى المتناقضات التى تولـدت فعلا، وبصفة خاصـة متعلقة بوضـوح الصلة بين أسباب ونتائج الموقف الطبقى، ومهما يكون اختلاف فرص الحـياة، فهذه الحقيقة فى ذاتها طبقًا لكل التـجارب والخبرات، بلا شك تعمل على توليـد العقل الطبقى، ولكنه مـشـروط بالإدراك الواضح لنـتـائج الموقف الطبـقى لأنه عند ذلـك فـقط يمكن الإحساس بتناقض فرص الحياة)[1].

ويبدو من عمل فبر أنه كان يعنى أوليّاً بالتوترات والتداخل بين الطبقة والمكانة، وبين المصلحة والفكرة، لأنه رأى فى ذلك ديناميكيـة النمو التاريخى ذلك يعنى أن فبر لم ير فـى الصراع الطبقى ما رأته الماركـسية من دور حاسم فى مـسار التاريخ الإنسانى، وإن كان فبر لم ينكر الصراع الطبقى ونصـيبه فى التاريخ، إلا أنه اعتبر

(1) Gerth and Mills: From Max Weber. P. 184.

(أن الصراعات الطبقية القديمة كانت صراعات طبقية حقيقية إلى حد بعيد، وليست صراعات بين جماعات مكانة)[1]. واعتبر تركيز ماركس على العامل الأجير الذى أفرزته وسائل الإنتاج، ما هو إلا مجرد حالة خاصة من اتجاه عالمى، فبالمثل أفرزت وسائل العنف الجندى الحديث، وأفرزت وسائل البحث العالم، ووسائل الإدارة الموظف المدنى، وهكذا حاول فبر وضع أعمال ماركس فى مضمون أكثر عمومية، موضحًا أن نتائج ماركس تقوم على ملاحظات اشتقها من حالة خاصة رتبها ماركس، ولكن يمكن رؤيتها أحسن كإحدى الحالات فى سلسلة واسعة من الحالات المتشابهة، واعتبر فبر أن السلسلة ككل توضح الاتجاه المتميز الواسع لعملية البيروقراطية، وهكذا وضع فبر فى مقابل الصراع الطبقى عند ماركس مفهوم البيروقراطية الرشيدة.

مفهوم الترشيد

فلقد اعتبر ماركس أن الاقتصاد الحديث لا عقلى أساسًا، هذه اللاعقلية للرأسمالية تنتج من تعارض التقدم التكنولوجى الواعى لقوى الإنتاج، وبين قيود الملكية الخاصة والربح الخاص ومنافسة السوق غير المنظمة، ومن ثَمَّ يتميز النسق بفوضى الإنتاج.

ولكن فبر لم يركز انتباهه على مشاكل ديناميكيات الرأسمالية ومشكلة دورة العمل والأزمات الرأسمالية، التى شغلت انتباه ماركس وجعلته يصف الرأسمالية بفوضوية الإنتاج: هذا الإغفال الذى تعمده فبر له أهمية بالنسبة لمفهومه عن الترشيد فى المجتمعات الحديثة.

فعند ماركس خدمت العناصر العقلية للمجتمع، العناصر التى لا يمكن السيطرة عليها واللاعقلية، فعملت بذلك على زيادة المتناقضات، بينما عند فبر الرأسمالية هى الشكل الأعلى للعمليات العقلية، فتفصح نظمها عن تجسيد للعقلية فى نمط من البيروقراطية، فتتنافس المؤسسات الكبيرة مع الدولة البيروقراطية فقط فى رفع الكفاءة العقلية واستمرار العملية والسرعة والدقة وحساب النتائج، ويستمر

(1) Ibid.,P. 185.

كل هذا فى داخل النظم التى تدار عـقليّاً، وتشغل الوظائف المؤتلقـة والمتخصـصة مركز الانتباه فى النظام، ومن ثَمَّ يكون كل البناء ديناميكيّاً.

وهكذا أثبت فبر للبيروقراطية وجهها العقلى، وأظهر إعجابه بالنظام الرأسمالى المدار بيروقراطيّاً، واعتـبر أن الرأسمالية الصناعية الحديثـة استوعبت النظم الأخرى فى تصورها هى، المتجه نحو الترشيد لكل وجوه الحياة.

ويلاحظ أن هناك خط فكرى واضح يربط بين شـتى بحوث فبـر، وهو عنصر الترشيد Rationalization الذى يظهر بوضوح أنه أكثر العناصر عمومية فى فلسفته عن التاريخ، حتى أنه يجعل من فلسفـة فبر كنظرية تطورية تجعل من التاريخ نمواً مسـتقيـمًا، فلقد اعـتبر فـبر أنه خلال نشـأة النظم وتدهورها، وصعـود وهبوط الطبقات والأحزاب والحكام، أتمت الإنسانية الاتجاه العام للترشيد الدنيوى، واعتبر فبـر أن هذه العملية اسـتلزمت إيقاظ العالم وإزالة أوهامـه، ومن ثَمَّ يقاس المدى والاتجاه للتـرشيـد سلبيّـاً فى مصطلحـات من درجة إزاحـة العناصر السـحرية. وإيجابيّـاً إلى مدى ما ربـحته الأفكار بانتظام من تماسـك ودوام، وهكذا (يجعل مفهـوم الترشيد أعـمال فبر تظهـر كما لو كانت مـسألة نمو مستقـيم، لنقول من السحـر إلى التفكيـر العلمى أو من اتجاه أولى سيـاسى إلى اتجاه أولى رأسـمالى للمشاريع الاقتصادية)[1].

ففى علم اجـتماعه الدينـى نجد عنصر الترشـيد واضحًـا، فقد تتبع فـبر تحليل تدهور السحر حتى ظهور الأنبياء أى الديانات العالميـة، واعتبر هذه العملية ترشيدًا متـزايدًا فى مقـابل التدهور للسحـر، وفى مقـال فبر عن التـوترات بين الديانات الأخوية والمجال الاقتـصادى كشف عن عمليات الترشيـد التى اتخذتها الطوائف، وفى مقـاله عن البروتستـانتينية جـعل تعاليم كالـفن عن القدرية النقطة الأساسـية للتحليل، وأظهر فى هذا التـحليل عملية الترشيـد المتزايد للمذهب اللاهوتى. ولما كان مهـتمّاً أيضًا بتـحليل السلوك الإنسانى، ففى قلب هذا التحـليل وجد الخوف الدينى للمؤمن من أجل خلاص روحه، ذلك الخوف قدم الدوافع للتنظيم المنهجى

(1) Bendix,Renhard: "Max Weber's Sociology to day" International social science Journal. Vol. XVII No., 1956 P.11.

للحياة التى رأى فيها جوهر روح الرأسمالية. وكذلك بذلت الطوائف البروتستانتينية جهدًا ترشيديّاً كبيرًا لتشكيل الحياة الاقتصادية ومن أجل هذا الغرض حلل فبر أنواعًا أخرى من عمليات الترشيد فى الديانات الصينية والهندية.

لهذا اعتبر فبر عملية الترشيد قوة ثورية هامة للتاريخ لا تقل أهمية عن القوة الثورية للإلهام. ولقد بحث الأساليب الخاصة التى يحصل بها الترشيد على القوة المهمينة على الحياة الاجتماعية، فوجد أنه بينما يعمل الإلهام من خلال عملية ثورية العقول، فإن عملية الترشيد تعمل من خلال ثورية الظروف المادية للحياة، ومن ثَمَّ فمنطقتها أصلاً فى المجال الاقتصادى.

واعتبر فبر أن الرأسمالية هى أعظم قوة ثورية فى العالم الحديث تمامًا مثل ما فى السياسة. وفى كل من الحالتين البيروقراطية هى مركبة العملية الثورية. واعتبر بذلك البيروقراطية هى الشكل الفنى الأكثر كفاءة عقليّاً.

واعتبر أن العوامل الروحية تلعب دورًا هامّاً فى الإنجاز والإسراع بهذه العملية، وهى عملية الترشيد العالمى.

***

جورج ميد
GEORGE MEAD
(١٩٣١ - ١٨٦٣)

ولد ميد فى مشاشوستس Massachusettes، ابن رجل دين بيوريتانى. وتعلم فى كلية أبرلن Oberlin، ثم جامعة هارفارد ثم جامعة ليبزج Lepzig، ثم جامعة برلين فى ظل المثالية الألمانية التقليدية والعملية الأمريكية. ولقد قدم ميد بحوثًا عن أفكار كل من سمل Simmel ودوى Dewey. وأثناء عمل ميد مع دوى فى جامعة شيكاغو، ركز ميد على فهم التفاعل المتبادل والذات الاجتماعية social self فى داخل محتوى مجتمع يعايش أعلى مستويات التصنيع والتحضر ونزعات الإصلاح والنزعة العملية والمثالية. ومن ثَمَّ كان وعى الإنسانية بذاتها يتزايد تبعًا لذلك، وكان ميد فى مقدمة هذه العملية. وتتضمن أعماله الرئيسية العقل والذات والمجتمع (١٩٣٤) Mind, Self and Society، وفلسفة الفعل (١٩٣٨) The Philosophy if the Act.

أهدافه:

كان هدف ميد الأولى، هو دراسة نشاط أو سلوك الأفراد كما يوجد فى العملية الاجتماعية[١]. وفى محاولته فهم مثل هذه الظاهرة كوظيفة لمحتواها الاجتماعى والسيسيولوجى، وركز على الوحدات الصغرى للسلوك الاجتماعى، وذلك فيما يقابل المعنى عند فبر. وتبعًا لذلك ركز على الأهمية السسيولوجية للتفاعل الاجتماعى والعقل واللغة بالذات. وهكذا يمكن اعتبار ميد من أوائل أصحاب اتجاه علم النفس الاجتماعى.

(1) Meag, G. H: "Mind, Self and Society" University of Chicago PRess Chicago, 1934.

obeikan.com

نظريته

اعتبر ميد أن الفرد رشيد وأنه نتاج العلاقات الاجتماعية Product of social relations .ونرى هنا وجه الشبه مع ما ذهب إليه فبر.

واعتبـر ميد أن الحقيـقة هى كل من الفردى individual والاجتماعى Social. مثل هذه الدراسـة ذات المستويات المتعـددة ذات أهمية كـبيرة لأنها عكس مـا كان قبلها من النظريات التى كانت تتعامل مع الوحدات الكبرى.

واعتـبر ميـد أن المجتمع ديناميـكى وتطورى ومسـتمر فى تقـديم أنماط جديدة ومتـغيـرة من النشـأة الاجتمـاعيـة للأفراد. ويـلاحظ أن تلك النظرة الديناميكـية والمعيارية للمجتمع تتوازى مع تركيز فبر على المعنى والترشيد.

واعتبـر ميد أن الذات الاجتمـاعية social self تتطور خلال سلسـة معينة؛ يتم التفاعل الاجتـماعى خلال الاتصالات الرمزية واللغة: خلال الـلغة يتعلم الإنسان الاتجـاهات والعـواطـف ومن ثَمَّ يصنـع العـقل mind والذات self. والذات الاجتـماعيـة تتطور خلال ثلاث مـراحل: (مرحلة المحاكـاة فى الأفعـال ومرحلة اللعب The Play stage ومرحلة الإلمام بقواعد اللعبة The game stage. والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من العمـر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الآخرين المحيطين به مـثل الآباء والأخوة والأخوات، أمـا المرحلة الثانيـة فإنها تبـدأ عندما يصل الطفل إلى سن الثـالثة وتتـسم بميل الطفل إلى اتخـاذ أدوار الآخرين حـيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشـرطة وفى هذه المرحلة يبـدأ الطفل فى الخروج عن نطاق نفسـه أى أنه يبدأ فى الاهتمام باتجاهات الآخرين نحـوه بوصفه موضوعًا object. واتخاذ دور الآخر هو العـملية فى تكوين الذات. وفى مرحلة اللعب هذه يكتـسب الفرد مـجموعـة من الذوات selves، يتم التكامل بينها فى المرحلة الثالـثة، وهى المرحلة التى تظهـر فيهـا الذات الموحدة unified self، وفى هذه المرحلة يصبح الطفل قادرًا على تبنى اتجاهات كل أعضاء المجموعة التى ينتمى إليها وعلى تصور دور كل فرد فى المجموعة والقـيام به. وقد سمى ميد المجموعة الاجتمـاعية التى يكون الفرد من خلالهـا ذاته بالآخر المعمم generalized other.

ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه)[1].

واعتبر ميد أن نتاج هذه العملية (المراحل الثلاث) هى صياغة الذات الاجتماعية، التى تتركب من عنصرين رئيسيين: الأول (أنا I فاعل) وهى استجابة الفرد لاتجاهات الآخرين، الثانى (مفعول me) وهو عبارة عن الاتجاهات الاجتماعية التى يتعلمها الفرد أثناء عملية التنشئة الاجتماعية.

واعتبر ميد أن الفرد يمتلك ذاتًا اجتماعية فقط فى حالة علاقاتها بذوات الأعضاء الآخرين لجماعته الاجتماعية، وأن بناء ذاته يعبر أو يعكس نمط السلوك العام لجماعته الاجتماعية التى ينتمى إليها، تمامًا مثل ما يعبر بناء ذات كل فرد آخر ينتمى لهذه الجماعة الاجتماعية)[2].

ومن المهم ملاحظة أن ميد لم يأخذ ولم تكن دراسته حتمية بالنسبة للذات الاجتماعية، بل بالأحرى، اعتبر ميد أنه بالرغم من التنشئة الاجتماعية أى التطبيع الاجتماعى، فإن عمليات الذات تتضمن وجوهًا إبداعية وتلقائية تساهم فى التغير الاجتماعى، واختراع أنماط جديدة من التنشئة الاجتماعية.

وهكذا جعل من الفردية الإنسانية لديها القدرة على المساهمة فى استمرار الديناميكية الاجتماعية والتغير.

وهكذا يمكن القول أن ميد اعتبر أن المجتمع يمثل نسق ديناميكى من التنشئة الاجتماعية، والذى فى داخله تتشكل الذات الاجتماعية خلال التفاعل واللغة أهم أدواته. وتتقدم التنشئة الاجتماعية خلال ثلاث مراحل متميزة، ومن ثَمَّ يعتبر نموذجه نسقى ويركز على الوحدات الصغرى، وقد حددته نظرة تطورية. وتبعًا لذلك فالحقيقة الاجتماعية هى دائمًا فى حالة صنع، وذلك استجابة لنشاط الأفراد المبدع التلقائى فى تطوير أشكال جديدة من التنشئة الاجتماعية والذوات الاجتماعية.

***

(١) دكتور سمير نعيم أحمد: النظرية فى علم الاجتماع، دار المعارف ١٩٧٩، القاهرة. ص ٢٥٥.

(2) Mead: op. cit. P. 164.

النمط الطبيعى للنزعة السلوكية الاجتماعية المبكرة

هذا النمط من النوع الذى يهتم بدراسة الوحدات الصغرى واستقرائى ومعيارى. وعلى أى حال فإن هذه النزعة تقوم على أساس افتراضات تهتم بخصائص الطبيعة الإنسانية والغرائز الإنسانية.

***

obeikan.com

جورج سمل
GEORGE SIMMEL
(١٩١٨ - ١٨٥٨)

ولد سمل ابن رجل أعمـال يهودى، وتعلم التاريخ والفلسفة بجـامعة برلين التى عمل بها مـحاضراً فيما بعد. وتأثر بـأعمال كانت Kant وداروِن وسبنسر، ويعـتبر سمل ممن ساهموا فى تأسيس علم الاجتماع الحديث فى ألمانيا. ويتضمن أهم ما نشره كتاب (عن القرون الاجتماعية (١٨٩٠) On Social Differentiation، وفلسفة النقود (١٩٠٠) The Philosophy of Money، وعلم الاجـتمـاع: بحوث حـول أشكال الاجتماع (١٩٠٨) Sociology: Investigations on the forms of Society.

أهدافه:

كان سمل مهتماً بأنماط وأشكال التفاعل والاتحادات فى المجتمع. بمعنى أنه كان مهتماً بتجريد الصور الرئيسيـة للسلوك الاجتماعى فى المجتمع، (ويقصد بالصورة ذلك العنصر الذى يتـحقق فى الحيـاة الاجتماعـية، ويكتسب خـاصية الاستـقرار النسبى ويتخـذ شكلاً نمطياً، متميـزاً عن المضمون أو المحتوى الذى يحضع للتـغير المستمر، فتحليل الصور أو الأشكال تحليلاً مجردًا هو جوهر الدراسة، لأنه يقتضى دراسة البناء الواقعى للمجتمع[١].

مثل تلك الدراسة كانت تهتم بالوحدات الصغرى microscopic، ولكن ما هو أهم أنها تتضمن شـجبًا ورفضًا للنظريات العضوية عـن الحقيقة الاجتماعـية. فقد اعتـبر سـمل أن المجتمع لا يوجـد كنسق منفصل، ولكن بالأحـرى فإن المجـتمع منغرس فى أشكال أو صـور العلاقات الاجـتماعـية المتشـابكة، هذه الأشكال من العلاقات التى اتجه ورغب سمل فى دراستها.

(١) فيماشيف: «نظرية علم الاجتماع»- ترجمة دكتور محـمود عودة، دكتور محمد الجوهرى، دكتور محمد على محمد، دكتور السيد الحسينى، دار المعارف- القاهرة ١٩٧٧. ص ١٥٩.

obeikan.com

نظريته

اعتبر سـمل أن المجتمع ليس عضوياً، ولكن اصطلاح مـجتمع اسم يدل على مجموعـة من الأفراد المتفاعلين. وطبقًا لذلك أصبح علم الاجـتماع عند سمل هو دراسة أنماط التفاعـل وأشكال الاتصالات، طالما أن هذه الظواهر هى الموجودة فى الواقع، وأنها توجد كعملية Process.

اعتبر أن المجتمع يوجد كوظيفة للتنشئة الاجتـماعية أكثر منه كحقيقة مستقلة. وتبـعًا لذلك اعـتبـر أن الفـرد هو نتاج المجـتمع. ومـن ثَمَّ يصبح كل من الفـرد والمجتمع مواضيع هامة لعلم الاجتماع.

اعتبر سمـل أن خواص أى جماعة معينة يمكن رؤيتهـا من خلال نوع التفاعل والاتحاد وبصفة خاصـة حجم الجماعة. وتبعًا لذلك اعتبر سـمل أن حجم الجماعة يحدد شكل الاتحاد، أى أن هذا الحجم يحدد الشكل. ومن ثَمَّ يمثل حرية عالية، ولكن فى الاثنين يوجـد الاعتـماد، وتسـود السلطة فى الثلاثة، وتحكـم الأعراف mores الجماعات الصغيرة، والقوانين تحكم الجماعات الكبيرة.

واعتبر سمل أنه فى داخل أى جماعة يوجد الغريزة الإنسانية الهامة وهى تجاهل الآخرين، وهى التى تؤدى إلى التنافس وذلك هو العنصر الرئيسى فى نظريته.

وتؤدى هذه الغريزة إلى استمرار الصراع، وهو جوهر الحياة الاجتماعية والتطور الاجتـماعى. وتبعًـا لذلك تصبح العلاقـة بين الفرد والمجتـمع جدلية (دياليكتـية dialectical) بينما يؤدى التصنيع إلى مزيـد من حرية الفرد، ولكن تزيد أيضًا من الاغتراب. كما رأى سمل أن من آثار التقدم التناقض، بمعنى أن الصراع يؤدى إلى التطور الاجتماعى ولكن فى نفس الوقت يزيد مشاكل الفهم عند الفرد[1].

***

(١) اعتمد فى هذا المقال على

Wolff, K.H. (ed. and trans): The Sociology of George Simmel" Free Press New York, 1950.

وليم سمنر
WILLIAM SUMNER
(١٩١٠ - ١٨٤٠)

سمنر هو ابن ميكانيكى سيارات إنجليزى، تعلم فى أكسفورد Oxford ثم فى جامعة Yal. وتعلم اللغة الفرنسية والعبرية واللاهوت. وبالرغم من هذه الثقافة الكنسية وخط حياته الأول الدينى، فقد تأثر سمنر بشدة بآراء سنسر، وداروِن، كما اهتم بالإنثروبولوجيا وعلم الآثار. كما أنه انشغل بالمسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كانت فى عصره.

ويعتبر أعظم مؤلفاته كتاب الأساليب الشعبية (١٩٠٦) Folkways وله مؤلف آخر لم يكن له من شهرة مثل الأول، وهو علم المجتمع (١٩٢٧) The Science of Society الذى لم يتمه وأنجزه تلميذه ألبرت كيلر. وما نهتم به فى هذا المقام هو ما كتبه سمنر عن البناء المعيارى للمجتمع وأساسه الغرائزى فى مؤلفه الأساليب الشعبية. وهكذا فإن كان سمنر يعتبر من أصحاب نظريات صراع الوحدات الكبرى. فإن اهتمامنا به هنا يتركز حول عناصر السلوك الاجتماعى فى نظريته والتى تبرز أساس هذه النظرية.

أهدافه:

اعتبر سمنر أن علم الاجتماع هو دراسة قوانين التطور الاجتماعى، على كل من المستويين الوحدات الكبرى والوحدات الصغرى. ومن ثَمَّ يصبح عمل عالم الاجتماع الرئيسى هو تتبع هذه القوانين التطورية فى الظواهر الاجتماعية من أجل أن يضاعف النمو الاجتماعى الرتيب، وعند مستوى السلوكيين الاجتماعيين، يتضمن هذا تحليلاً للعلاقة بين الدوافع الفردية وبين تطور ونمو نسقه المعيارى (الأساليب الشعبية).

obeikan.com

نظريته

تحت تأثير نظريات سبنسر وداروِن، جعل سمنر دعواه الأساسية أن التطور قوة أساسية وقانون. فعنده يتطور المجتمع إلى مستويات أعلى من التنظيم خلال عمليات التنافس والتعاون، وأن البقاء للأصلح.

واعتبر سمنر أن فى هذا التطور ينغرس قانون السكان، الذى يقول إن السكان يميلون إلى الزيادة إلى حد قوة إمداد البيئة، وقانون الغلة المتناقصة. ويقدم التوليف بين قانون السكان وقانون الغلة المتناقصة أهم الظروف الاجتماعية. وأدى ذلك إلى أن ينمط سمنر المجتمعات إلى نمطين مزدحم السكان، وقليل السكان. ويتميز القليل السكان باقتصاد الوفرة، والديموقراطية، وطبقات اجتماعية أقل. بينما المزدحم السكان يتميز باستخدام منابعه إلى أقصى حد، وتضبطه قوة الصفوة، كما يتميز بشدة الفروق الطبقية.

وهكذا حاول سمنر رسم صورة مطابقة لأثر النمو السكانى على المنابع الطبيعية، وفى داخل هذا الإطار، قرر سمنر بأسلوب يجعله من أصحاب الحتمية الافتصادية، أن الفقر هو نتيجة الجهل، ويعنى الجهل بقوانين التطور.

وعند مستوى تفاعل الأشخاص، اعتبر سمنر أن السلوك تنمطه الأساليب الشعبية والأعراف، وبهذا الأسلوب فقد اتخذ لنفسه نظرة معيارية للظواهر الميكروسكوبية (الوحدات الصغرى).

واعتبر سمنر أنه يقبع وراء عمل الأساليب الشعبية والأعراف المصالح الإنسانية أو الدوافع الإنسانية، مثل الجوع، الحب، والخوف، والغرور والزهو. ويقبع وراء هذه المصالح، بالتالى الدافع الإنسانى الرئيسى المنفعة advantage والضرورة expediency.

واعتبر أنه من هذه المصالح والدوافع تنمو الأساليب الشعبية عن غير وعى أوقصد وتلقائياً وبدون ترتيب، ويعبر عن ذلك بقوله (فإذا وضعنا كل ما تعلمناه من الأنثروبولوجيا والأثنوجرافيا عن الناس البدائيين والمجتمع البدائى، ندرك أن أول عمل للحياة هو أن نعيش، فيبتدئ الناس بالأفعال وليس بالأفكار، وكل لحظة

obeikan.com

تجلب ضرورات يجب إشباعـها فى الحال. فكانت الحاجة أول خبـرة ثم تبعها فى التو مجهـود كثير الخطأ لإشباعها. . . إنه أول النقط الهـامة أن يلاحظ أن الأفعال الأولـى التـى بها حـاول الإنسـان إشـباع حاجاته، كان كل فـعل يقف بنفسه، ولا يرمى إلى أبعـد من الإشبـاع المباشـر. من الحاجـات المتكررة نشأت الـعادات للأفراد والعادات الاجـتماعية للجـماعة، ولكن هذه النتائج لم تكن أبدًا مـشعورًا بها، أى عن وعى، ولم تكن مرئية أو متعمدة)[١].

وخلال الطقـوس الثابتة والمستـمرة نؤسس الأساليب الشعـبية أخيـرًا على أنها الصواب والحق وتقـويها المحـرمات Taboos والجزاءات sanctions ثم تقوى أكـثر بالجماعة الداخلية ingroup والجماعة الخارجية (فكل جماعة تنعش كبريائها وعزتها وتؤيد تفوقها وتمدح ديانتها، وتنظر باحتقـار إلى الخارجين، وتعتقد كل جماعة أن أساليبها الشـعبية هى الوحيدة والسليمة، وإذا لاحظت أن الجـماعات الأخرى لها أساليب شعبية أخرى فهى تستحق احتقارها)[٢]. ومن ثَمَّ تتحول الأساليب الشعبية إلى معايير تعنى برفاهية الجماعة.

ويخضع كل فرد للمعايير التى أصبح لها قـدسيتها وجلالها لأنها أتت إلينا من المواضى، ومن ثَمَّ توجه سلوك الأفـراد. ويعبر سمنر عن ذلك بقـوله: (لقد أتت إلينا المعاييـر من الماضى ولقد ولد كل فـرد بينها، وطالما أنه ولد فى جوها، فـهو لايستطيع أن يضيف عليها أو يتركها، ومن ثَمَّ يذعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقليّاً [٣].

وليس معنى هذا أنها لا تحـمل فى طياتها الأسباب العقليـة لرسوخها ولكن بالعكـس (هى تتضـمن فى ذاتها تبريراتها الذاتيـة بواسطـة التقاليد، والفائـدة – المصلحـة أو اللـذة– والرغبـة، وتؤيد بجزاءات، كما أنها ليـست منبهة للفكر بل على العكس، إذ قد تم صنع التـفكـير وأصبح منغرسًا فـى المعايـير، وهى

(1) Sumner, W.G.: "Folkways} Ginnand Com. Boston U.S.A.P.2-4.

(2) Ibid.: P. 13.

(3) Ibid.: P. 76.

لا تحتوى إطلاقًا أى استعداد لتغيير ذاتها، فهى ليست أسئلة ولكنها إجابات لمشاكل الحياة، فهى تضع نفسها كشىء نهائى وغير متغير لأنها تقدم إجابات معينة على أنها صادقة)[١].

ويضرب سمنر مثلاً على خضوع سلوك الأفراد أو الجماعات للمعايير بقوله (هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج... فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك. والبعض الآخر يريد مناقشة الملكية، وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته. الزواج والملكية هم فى المعايير... الشىء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير)[٢].

وهكذا تباشر المعايير ضغطًا ودفعًا نحو الثبات، وتمثل أسس الضبط الاجتماعى، والبناء الاجتماعى، وفروق الثقافات الفرعية والأنساق النظامية، وهكذا تصبح المعايير وقد انتظمت institutionalization أى صارت نظمًا.

والنظم الاجتماعية عند سمنر (إما أن تنمو crescive أو تسن anacte، وتكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة. الملكية والزواج والدين أهم النظم الأولية، لقد بدأوا فى الأساليب الشعبية. ثم أصبحت عادات اجتماعية، ثم نمت إلى معايير عن طريق إضافة شىء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة، ثم ازدادت تحديدًا وتخصصًا للقواعد والأفعال المقررة، واستعملت المعدات فأنتج ذلك بناءً، واكتمل النظام)[٣].

هذا البناء ليس بأى حال ثابت static، فالأعراف قد تصبح جامدة أو صلبة أوحتى تفسد ومن ثَمَّ تخضع للتحسين (إذ عادة تكون الجماعات مجبرة على أن تعمل بأساليب غير معتادة، لأن التغير أفقد المعايير التقليدية قدرتها على الإشباع، ومن ثَمَّ اتضح فسادها وأصبحت سيئة الأثر. فالمعايير السيئة هى تلك التى لا تلائم ظروف الحياة وحاجات المجتمع فى ذلك الوقت)[٤].

---

(1) Ibid.: P. 97.
(2) Ibid.: P. 76-77.
(3) Ibid.: P. 54.
(4) Ibid.: P. 99.

obeikan.com

فإذا ما ساءت المعايير يدفع ذلك أعضاء المجتمع إلى إعادة فحص أساليب التفكير والعمل ويتركوا السلوك المنتظم أى المضبوط بواسطة النظم والذى اعتادوه من قبل، يتركوه إلى نوع من السلوك الجمعى فيلتف الناس حول بعضهم وتنشط عملية رد الفعل الدائرى فى تقريب المسافات الاجتماعية (إذ أنه إذا تجمع عدد من الأشخاص مع بعض، وخاصة إذا كانوا متحمسين بنفس المشاعر منبهين بنفس المصلحة، ينقلون الدافع كل إلى الآخر مما يجعل كل البواعث والدوافع تزداد إلى معدل عال جداً، فى كلمات أخرى، أنها حقيقة مسلم بها أن كل الحالات العقلية والعاطفية تزداد زيادة عظيمة بالقوة بواسطة انتقالها من رجل لرجل. وخاصة إذا كانوا ملتفين بمفهوم من الاجتماع والاتفاق والتعاون بين عدد كبير لهم مشاعر عادة أو اهتمام عام)[1]، ومن ثَمَّ اعتبر سمنر أن هذه الظواهر المعيارية تخضع للتغير والتطور المستمر فى استجابة للظروف الاجتماعية المتغيرة.

وهكذا يمكن القول أن سمنر عند مستوى الوحدات الكبرى تطوراً طبيعياً للنمو الاجتماعى بأسلوب بسيط، وعند مستوى الوحدات الصغرى، وضع الظواهر الاجتماعية فى مفاهيم معيارية، واعتبر الحقيقة الاجتماعية كمجموعة متغيرة ومتطورة من الأساليب الشعبية والأعراف، والتى تتطور فى استجابة للدوافع والمصالح الإنسانية.

***

(1) Ibid.: op. cit. P. 20.

obeikan.com

ثانيًا: السلوكية الاجتماعية المعاصرة

بالرغم من أن معظم النظريات المعاصرة تركز على الوحدات الكبرى فإن النزعة السلوكية الاجتماعية المعاصرة، وخاصة ذات الجذور التى تمتد إلى أعمال ميد، وسمنر، استمرت فى تأثيراتها على علم الاجتماع الحديث وخاصة فى الحقل الفرعى المسمى علم النفس الاجتماعى.

ويمكن اعتبار السلوكيين الاجتماعيين المعاصرين رد فعل جماعة معينة من المثقفين وخاصة أولئك الذين تعلموا على يد ميد فى شيكاغو أو تأثروا به، وكاستجابة لعدد من الظروف الخاصة، مثل استخدام المفاهيم الفردية المبكرة عن المجتمع للموقف المعاصر، وأيضًا التركيز الشديد على نزعة الفردية المنغرسة فى الأخلاق البروتستانتية التى تعتبر أساس معظم الثقافة الأمريكية والبريطانية والألمانية، وكذلك التأثيرات السلبية للتصنيع الحديث والبيروقراطية على الفرد.

ومن ثَمَّ يمكن اعتبار نموذج علم النفس الاجتماعى هو تطبيق للأفكار المبكرة للنزعة الفردية indivdualism والتطور الاجتماعى على ما يجرى من الأحداث فى داخل المجتمعات المعاصرة فى حالة تأثيرها على الفرد. تعتبر هذه النظرة أن المجتمع موطن فى داخل الفرد وخاصة فى مفهوم الذات self concept وعلى أن المجتمع ديناميكى وينبعث خلال التبادل الاجتماعى، والتفاعل الاجتماعى، والتفسير.

وقد ركزت هذه النزعة على فهم معنى الظواهر الاجتماعية، والمحتوى السسيولوجى للتفاعل الاجتماعى، وكيف يقوم البناء الاجتماعى على أساس عمليات التبادل الاجتماعى، وكيف تنتظم عمليات التفاعل الاجتماعى أو تصبح عقلية ورشيدة عند المستوى الفردى فى ممارسات الحياة اليومية، ومن ثَمَّ فالتركيز هنا على المجتمع باعتباره نسق ديناميكى ينبعث من التفسيرات الفردية للحقيقة الاجتماعية. نسق يخضع للتغير والتنظيم المستمرين.

ويمكن تصنيف نظريات السلوكين الاجتماعيين المعاصرين إلى نمطين رئيسيين:

١- النمط النسقى، حيث يركز على النواحى الاجتماعية للذات الاجتماعية والتفاعل وتحليل عوارضها الاجتماعية.

٢- النمط الطبيعى، الذى يرى أسس التفاعل على أنها منغرسة فى عناصر التركيب البشرى أو الطبيعة.

فمثلاً يهتم كل من بلومر Blumer وجوفمان Goffman بنواحى التفاعل الرمزى والبنائى، بينما يرى بلاو Blau العمليات الاجتماعية منغرسة فى العمليات السيكلولوجية الأولية، وبصفة خاصة فى دوافع الحصول على الهدف والاستمالة. بينما يعتبر جارفنكل Garfinkel أن الدافع الأساسى للكائن البشرى هو التوافق والتجانس مع النظام الأخلاقى. وهكذا نرى أن المفكرين بلومر وجوفمان نسقيان، بينما بلاو وجارفنكل طبيعيان.

على أى حال هذه الاختلافات تعتبر اختلافات فى الدرجة فقط، طالما أن جميعهم يهتمون بإنشاء نظريات عن التفاعل الاجتماعى.

***

obeikan.com

هربرت بلومر

HERBERT BLUMER

(١٩٠٠ - ١٩٨٧)

ولد بلومر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٠٠ وتعلم أولاً فى جامعة ميسورى Missouri، حيث نال درجته الجامعية الأولى ثم درجة الماجستير، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو Chicago حيث نال درجة الدكتوراه، وفى جامعة شيكاغو تتلمذ على يد العلامة ميد Mead وتأثر به إذ أنه استمر يعمل بجامعة شيكاغو عدة سنوات، ثم انتقل إلى جامعة بركلى Berkely التى استقر بها. وكان بلومر شديد الاهتمام بالدراسات النفسية الاجتماعية (السيكوسسيولوجية)، والسلوك الجمعى collective Behavior والاتصالات الجمعية mass communications، بل يعتبر المؤسس لاصطلاح التفاعل الرمزى symbolic interaction، ومساهمته الرئيسية كانت فى هذا النمط من النظريات الاجتماعية. وتضمنت أعماله عدة مقالات عن علاقات الأجناس، والسلوك الجمعى، والاتصالات الجمعية، والمجموعة التى يعتد بها من أعماله وتعتبر أحسن ما أنتج هى التفاعل الرمزى، والسلوك الجمعى. وفى هذا المقام نحن نهتم بالتفاعل الرمزى على أساس أنه الذى يتضمن نظريته.

أهدافه:

اهتم بلومر بإنشاء نظرية عن التفاعل الرمزى فى المجتمع. (ويشير التفاعل الرمزى إلى تلك الخاصية المتميزة للتفاعل عندما يحدث بين الكائنات البشرية[١]. وتتكون هذه الخصوصية من التفسير المتبادل والرمزى كل لسلوك الآخر. وتبعًا لذلك (يصبح علم الاجتماع من وجهة نظره، علمًا يهتم بالعملية التفسيرية التى بواسطتها تسلك وتفعل الكائنات البشرية سواء فرديّاً أو جمعيّاً فى المجتمع الإنسانى)[٢]. فمثل هذه النظرية تجعل من المجتمع كنسق من عمليات التفسير التى تحكم السلوك.

(1) Blumer: "Symbolic interactionism, Perspective and Method", Prentic-Hall, Englewood Cliffs, New- Jersy, 1969. P. 78- 79.

(2) Ibid: P. 89.

obeikan.com

نظريته:

اعتبر بلومر أن الناس سواء فرديّاً أو جمعـيّاً مجهزون للفعل على أساس معانى الأشـياء التى يتـضـمنها عـالمهم[١]. ومن ثَمَّ يقـوم السلوك على أساس المعـانى الاجتمـاعية المتطابقة مع أشياء. أو مـواضيع معينة. هذه الأشيـاء عبارة عن ثلاثة أنماط رئيسية:

١- النمط الطبيعى Physical مثل الأشجار والأنهار.

٢- اجتماعى Soeial مثل زملاء العمل، حكام.

٣- تجريد Abstract مثل مبادئ الأخلاق[٢].

واعتبر بلومر أن الاتحادات associations تمثل عملية process فيها يصنع الناس مؤشـرات أو دلالات كل للآخر، ويفـسر كل مؤشـرات الآخر[٣]. ومن ثَمَّ ينشأ العقل الإنسانى ويفسر.

وهكذا تنشأ الأفعال الاجتـماعية خلال العملية التى فيـها يلاحظ ويفسر ويقدر الفاعلون المواقف التى تواجههم[٤]. وهكذا يصبح الكائن البشرى عـضوا فاعلا له ذات self تشارك فـى أخذ الأدوار[٥]. وهكذا يتفـاعل الفرد مع ذاته فى العـملية التفسيرية.

واعتبر بلومر أن مركب الروابط المتبـادلة للأفعال الذى يتضمن المنظمات والنظم وتقسيم العمل وشبكة الاعتماد المتـبادل، أمور متحركة وليست ساكنة[٦]. كما أن خطوط الفعل الرابطة ليست سـابقـة التأسيس، كما أنها لا تملك وجـــودًا مـستقلًّا أو منفصلاً عن أولئك المشـاركون فى التفاعل، ومن ناحية أخرى الأفـعال السابقة لهؤلاء المشاركين، تجهز خلفية تكون فى خدمة إنشاء أى فعل رابط جديد[٧].

وهكذا يتبين أن مـفهوم بلومـر عن المجتمع يخـتلف تمامًا عن المفهـوم الخاص

(1) Ibid: P. 50.
(2) Ibid: P. 10.
(3) Ibid: P. 50.
(4) Ibid: P. 50.
(5) Ibid: P. 12.
(6) Ibid: P. 50.
(7) Ibid: P. 20.

بالنماذج العضوية والبنائية الوظيفـية أو نظريات الصراع. إذ يرى بلومر أن المجتمع يتركب من خطوط حية من الفعل تشكلت خلال عملية التفاعل المتبادل التفسيرى، التى يقودها أشياء ومواضيع معينة، وحدده وعـرفه مضمون جماعة معينة. وهكذا يمثل المجتمع عملية رمزية تفاعلية تفسيرية موطنة فى داخل الفرد.

وعلى هذا رأى بلومر أن هذه الافتراضات تتطلب نوعًا خاصّاً وفريدًا من مناهج البحث، وهو الانتفـاع بنمط من البحث أكثر طبـيعيّاً بمعنى نمط من البـحث يتجه مباشـرة إلى العالم التجريبى. ويؤكد بلومـر أن مثل هذه الدراسة تتطلب أن يضع الإنسان نفسه فى دور المشارك، وينظر إلى ديناميكيات التفاعل نظرة جادة، وينشئ صورًا من الفعل الاجتماعى، بمعنى أن يلاحظ العمـلية التى بها ينشأ ويشيد الفعل الاجتماعى. وينظر إلى النظم الاجتماعية والجماعات ديناميكيّاً.

هذه النظرة أدت إلى إثارة بعض الملاحظات:

١- يمكن اعتبـار هذه النظرة وجهة نظر أو إطار عمل مفهـومى أكثر منه نظرية. إذ أنها من الناحية التفسيرية والبنائية ينقصها الكثير.

٢- اتجاه بلومـر إلى اقتفاء خطوات ميـد يمثل مشكلة أخرى فـإلى أى مدى سوف ينجح فى تأسيس نظرية تحظى القبول عند علماء الاجتماع.

وزغم هذا فإن بلومـر قد ساهم مـساهمة فـعالة فى إنشاء نموذج عن المجـتمع استقرائى يتعامل مع الوحدات الصغرى وديناميكى.

●●●

ارفنج جوفمان

ERVING GOFFMAN

(١٩٨٢- ١٩٢٢)

حاز جوفمان على شهادته الجامعية الأولى من جامعة تورنتو Toromto سنة ١٩٤٥، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو التى نال منها درجة الماجستير ١٩٤٩ ثم درجة الدكتوراه ١٩٥٣. ومن ذلك الحين واصل مساره الأكاديمى فى جامعة بركلى، وحديثًا فى جامعة بنسلفانيا Pennsylvania. وكان اهتمامه يتركز حول إنشاء إطار عمل لتحليل التفاعل الاجتماعى، مؤسس على ملاحظات رسمية ولا رسمية واسعة المدى. ومن أهم منشوراته كتاب تقديم الذات فى الحياة اليومية (١٩٥٩) The Presentation of Self in Everyday Life، وكتاب المتعارضون (١٩٦١) Encounters وفى هذا المقام نحن نهتم خاصة بالكتاب الأول، إذ فيه قدم جوفمان نظريته فى التفاعل.

أهدافه:

يعتبر اهتمام جوفمان الرئيسى هو بالأسلوب الذى به يقدم الفرد نفسه ونشاطه فى مواقف العمل العادية، للآخرين، والأساليب التى بها يقود ويضبط الانطباعات التى يشكلها الآخرون عنه، ونوع الأشياء التى يرغب أو لا يرغب فى عملها أثناء إنجاز عمله أمامهم[1]. ومن ثَمَّ فهو يركز على إدارة الانطباع فى التفاعل، ولهذا يعتبر عمله مكملاً لعمل بلومر من حيث تركيزه على عملية التفاعل.

نظريته:

تدور نظرية جوفمان حول عملية إدارة الانطباع وقد صاغها على النحو الآتى:

تعتبر مصادر المعلومات أو التصورات المتبادلة مركز التفاعل. ومن ثَمَّ تصبح المعلومات عن الفرد تحدد الموقف إذ أنها ترسم ما تتضمنه توقعات الدور

(1) Goffman: "The Pressentation of self in Everyday Live" Doubleday, New York, 1959, P. XI.

obeikan.com

المتبادل[1]. وما له أهمية رئيسية هى المهارات المتميزة التى يستخدمها الأفراد لتقديم وإبراز أنفسهم، والظروف الخاصة التى تستخدم فى ظلها هذه المهارات.

خلال التفاعل -وليكن إنجازًا ما فهو يحدث كالآتى: نشاط مشارك معين فى ظرف معين يعمل على التأثير بأسلوب ما فى أى واحد من المشاركين الآخرين[2]. خلال مثل هذا الإنجاز قد يفعل الفرد نمطيّاً routine بمعنى يؤدى نمطًا من الفعل سابق التأسيس.

هذا الفعل النمطى routine قد يصير مقننا فى شكل واجهة front، ويعنى بالواجهة ذلك الجزء من إنجاز الفرد الذى يعمل وظيفيّاً بانتظام واطراد بأسلوب عام وثابت ليعرف ويحدد الموقف لأولئك الذين يلاحظون الإنجاز[3].

تتأثر هذه الواجهة front بالبيئة الطبيعية، وشكل الشخص مثل الملبس والعمر والجنس، والمظهر ويعنى به المؤشرات الدالة على المكانة الاجتماعية للفاعل، والأدب ويعنى به دلالات عما قد يصدر منه من سلوك. وعادة يتوقع الإنسان التوافق بين هذه العناصر.

فضلاً عن ذلك تميل الواجهات الاجتماعية social fronts إلى أن تصبح منتظمة institutionalized أى تتأسس، وخاصة فيما يختص بالأدوار المؤسسة تمامًا.

ومن ناحية أخرى، السلوك فى داخل الواجهات الاجتماعية، قد يخضع للتأليف dramatization، مثلاً، عندما يكون هناك حاجة ضرورية وملحة إلى اتخاذ قرار فى التو واللحظة. وأيضًا تخضع للمثل، مثلا سلوك يتعلق بنمط اجتماعى ثابت وملازم لدور معين.

واضح أن الإنجازات ليست سلوك أدوار معزولة ولكنها متبادلة الارتباط مع سلوك الآخرين. عندما يتشابك المتحيزون أو يتساندون (يتبادلون الاعتماد)، فهم يشكلون فرقًا teams أو مجموعات من أفراد يتعاونون فى متابعة عمل نمطى (روتين) واحد[4]. يكون أعضاء الفريق متساندون وإلى حد ما سلوك كل منهم نحو الآخر مألوف Familiar.

(1) Ibid: P. 1.
(2) Ibid: P. 15.
(3) Ibid: P. 22.
(4) Ibid: P. 79.

ويحدث سلوك الفـريق داخل منظمة خاصـة، ويعنى منطقة طبيعـية physical area. سلوك الأدب والرقة والزخـارف يقع فى منطقة الواجـهة، ويعنى بذلك فى المنطقة الـتى تجمع فيـها وتزايد المشـاهدون -أى حيث يرى الناس الفاعـل، بينما يحدث السلوك المتـعب وغير المضبوط فى المنطقـة الخلفية، فى المنطقة البـعيدة عن أعين الملاحظين.

وهكـذا يعتبـر جـوفـمـان أن التـفاعل الاجتمـاعى وخـاصـة النـمط المعيارى أو الأخلاقى[1]، هو وظيفة لعـملية إدارة الانطباع التى تتم داخل واجهـات معينة بواسطة فريق الإنجاز. وتبعًا لهذا النمط من التـحليل يحدد التفاعل أنواع معينة من المعلومات المتاحة والمتبادلة. ويقنن التفاعل خصائص الموقف وعلاقات الأدوار.

ومن ثَمَّ يمكن القـول أن جوفـمان قـدم نمطًا نظريّاً يتكون من نموذج فـريد عن الواقع الاجتـماعى. هذا النموذج يتكون من العوامل الرئيـسية التى تحدد الـتفاعل الاجتمـاعى وهى: الفاعل ومعه دوافـعه الملزمة، والإنجاز أو إدارة انطبـاع الفعل، والواجهة، وفريق الإنجاز مع مناطق الواجهة ومناطق الخلف. ويرتبط الفرد بالفريق من خلال الاعتماد المتبادل والسلوك المألوف.

●●●

(1) Ibid: P. 241.

obeikan.com

النموذج الطبيعى
للنزعة السلوكية الاجتماعية

هذا النمط من النظريات يدرس الوحدات الصغرى، ويهتم بالتوجيه الداخلى ونظرة استنباطية للظواهر الاجتماعية. على أى حال يمكن النظر إلى عمل كل من بلاو Blau وجارفنكل Garfinkel، أنه يميل إلى الاتجاه الطبيعى، طالما أن بلاو يرى لهذه الظواهر جذور فى العمليات السيكولوجية الأولية، كما أن جارفنكل يعتبر أن دوافع الفرد تتطابق مع النظام الأخلاقى. فكل منهما أنشأ نظرية اجتماعية عن الحقيقة الاجتماعية تأخذ فى الاعتبار عوامل طبيعية. على أى حال هذا النمط من التصنيف هو مسألة درجة أكثر منه نوع. وبصفة عامة يسود النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع النمط النسقى مع آثار طبيعية قليلة.

●●●

obeikan.com

هارولد جارفنكل

HAROLD GARFINKEL

(٢٠١١- ١٩١٧)

تلقى جارفنكل تعليمه فى جامعة نيو آرك New- Ark وجامعة كارولينا الشمالية North Carolina، ثم نال الدكتوراه من جامعة هارفارد على يد العلامة سالكت بارسونز. وكان محور اهتمام جارفنكل التنظيم الاجتماعى وخاصة فى الحقل المسمى مناهج بحث الشعوب Ethnomethodology أو ما يسمى أيضًا (بالمنهجية الشعوبية)[١]، الذى ساهم فيه مساهمة كبيرة بل ويعتبر أهم منشوراته العلمية هو كتابه دراسات فى مناهج بحث الشعوب (١٩٦٧).

أهدافه:

عرف جارفنكل اصطلاح Ethnomethodology بأنها (الاستقصاء للخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العملية التى تتم أثناء الحياة اليومية)[٢]. ويمكن القول بأن جارفنكل كان مهتمّاً بكيفية ترشيد الأفراد للواقع الاجتماعى أثناء ممارستهم وتفاعلهم فى حياتهم اليومية، إذ يوجد تنظيم اجتماعى أو نظام أخلاقى فى داخل التفاعل الاجتماعى والذى من خلاله وبه يفسر الأفراد الواقع الاجتماعى ويجعلونه رشيدًا أو يدركون الغرض منه أو يفهمونه. إنها تلك العملية (إدراك الغرض من الأشياء making sense out of) أو تفسير الواقع الاجتماعى الذى يهتم به جارفنكل فى نظريته.

مثل هذه الدراسة تختلف جذرياً عن علم الاجتماع التقليدى الذى عادة يتضمن وضع مفاهيم سابقة التحديد وتعريفات للحقيقة الاجتماعية على أساس بيانات

---

(١) هذه الترجمة وردت فى كتاب النظرية فى علم الاجتماع- تأليف الدكتور سمير نعيم (مرجع سبق الإشارة إليه).

(2) Garfinkel: "Studies in Ethnomethodology" Prestice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1967, P. 11.

obeikan.com

تجريبية. ولكن جارفنكل فى دراسته هذه عكس الوضع إذ اهتم بكيفية صنع الأفراد للحقيقة الاجتماعية، بمعنى كيف يصنع الأفراد أثناء تفاعلهم الواقع الاجتماعى، عن طريق تفسيراتهم الاجتماعية، ومن ثَمَّ تعتبر عملية التفسير الاجتماعى -أساس التنظيم الاجتماعى- كما هى مفهومة من عملية نظر الممارسين، وتلك العملية هى مركز اهتمام جارفنكل.

نظريته:

اعتبر جارفنكل أنه يوجد نظام أخلاقى عبارة عن بناء اجتماعى من القيم المعيارية، يمثل أسس التنظيم الاجتماعى، وهو عنده يعتبر موضوع علم الاجتماع(١).

واعتبر أن هذا النظام الأخلاقى مقبولاً عند أعضاء المجتمع، ويعرف الحقيقة الاجتماعية لأولئك الممارسين أى أعضاء المجتمع من واقع معاملاتهم اليومية(٢).

هذا النظام الأخلاقى يمثل الأسس لتفسير الواقع الاجتماعى(٣).

واعتبر جارفنكل أن دوافع الفرد هى أن يكون متطابقًا ومتوافقًا مع هذا النظام الأخلاقى عند تفسيره للواقع الاجتماعى، بمعنى أن يفهم الفرد الأفعال اليومية بواسطة تفسيرها بالرجوع إلى ذلك النظام الأخلاقى، أى من وجهة نظر النظام الأخلاقى. وهكذا يحاول الناس مواءمة مناشطهم فى داخل هذا النظام من أجل فهم أعمالهم أو أن يجعلوها معقولة لأنفسهم(٤).

طالما أن هذه العملية (التفسير العقلى) تحدث فى كل أنواع السلوك، فإنه يمكن القول أن أى وضعية اجتماعية منظمة ذاتيّاً Self- organizing بمعنى أن كل المواقف الاجتماعية تنظم نفسها، أى تكتسب لنفسها تنظيمًا، من خلال محاولة أعضاء الموقف إضفاء المعقولية أثناء التفاعل.

مثل هذا التنظيم طالما أنه يحدث أثناء عملية التفاعل، فهو ديناميكى(٥).

---

(1) Ibid: P. 33, 93.
(2) Ibid: P. 34.
(3) Ibid: P. 93.
(4) Ibid: P. 60.
(5) Ibid: P. 3.

واعتبر جارفنكل أن عملية الترشيد أو التعقيل تتكون من عدد من العناصر المتمايزة:

١- التصنيف والمقارنة.

٢- الأخطاء المحتملة والإتقان.

٣- البحث عن الوسائل.

٤- تحليل البدائل والنتائج.

٥- الاستراتيجية.

٦- الاهتمام بالتوقيت.

٧- إمكانية التنبؤ.

٨- قواعد التصرف أو الإجراءات.

٩- الاختيار.

١٠- أرضيات الاختيار[١].

تلك هى العمليات التى يستخدمها الفرد لإنجاز الرشد والمعقولية وفهم مناشط الحياة اليومية.

ويلاحظ أن موضوع علم الاجتماع عند جارفنكل يدور حول النظام الأخلاقى كما يعمل فى الممارسات المنظمة فى الحياة اليومية، وفى جذب الأفراد نحو الترشيد والتطابق مع هذا النظام الأخلاقى أثناء تفاعلهم مع الآخرين. ولهذا يعتبر أن التنظيم الاجتماعى ديناميكى، ويمثل نظام تفاوض بين الأفراد المتفاعلين.

كما يلاحظ أن جارفنكل قد استخدم قائمة ألفرد شوتز Alfred Schutz للترشيدات كما أن طريقته التجريبية تضمنت محاولة لدراسة عمليات الترشيد بعدد من الأساليب كتحليل الديالوج، ودراسات الحالة لأنماط معينة من الناس مثل تجارب يخضع فيها الناس لمواقف تشجيعية ويلاحظ تفسيراتهم لهذه المواقف،

(1) Ibid: P. 96, 103.

obeikan.com

ومواقف يفترض فيهـا الناس عدم الثقة ويلاحظ رد فعل الآخرين. كل هذه الطرق صممت لإبراز الحالة التى بها يعمل النظام الأخلاقى فى توجيه عملية التفسير عند الأفراد عندما يكافحون من أجل التطابق والترشيد.

وهناك عدة ملاحظات يمكن أن توجه إلى هذه النظرية وهى:

١- تعتبر المنهجـية الشعوبية وجهة نظر أكثر منهـا نظرية، وخاصة أنها تكشف عن كثير من الثغرات النظرية من حيث إفراطها فى تبسيط الحقيقة الاجتماعية.

٢- نقطة أخرى وهامة، وهى أن جارفنكل أهمل المحـتوى البنائى الذى فيه تنبعث عملية الترشيد، مثل تأثير خصائص الجماعات المختلفة فى هذه العملية.

٣- جـعل جارفنكل من كل نواحـى النسق الاجتـماعى وظيـفـة لعمليـة التطابق والترشـيد، وفى هذا إفـراط فى تبسيـط ما هو مركب ومـعقـد ويبدو أن هذه مشكلة دراسات الوحدات الصغرى عندما تتزايد فى التصغير.

وبالرغم من هذه الثغرات فهى محاولة جادة لإنشاء نظرية ديناميكية تختلف عن الأسلوب التقليدى، وتعتبر بداية لأسـلوب جديد فى علم الاجتماع قد يؤدى إلى إثراء العلم وخاصة فى فرع التنظيم الاجتماعى.

***

obeikan.com

بيتر بلاو

PETER BLAU

(١٩١٨ - ٢٠٠٢)

ولد بلاو Blau فى فيـينا Vienna، وأخذ شـهادته الجامـعيـة الأولى من كلية المهرست Elmahurst سنة ١٩٤٢، ثم نال درجة الماجـستير من جـامعة كامـبردج Cambridge سنة ١٩٥٠، ثم نال الدكتـوراه من جامعة كولومـبيا Columbia سنة ١٩٥٢ وابتدأ حيـاته العملية فى جامعة شـيكاغو سنة ١٩٥٣ وفى سنة ١٩٧٠ عاد إلى جامعة كولومبيا التى نال منها الدكتوراه.

وكانت أهم أعـماله العلمـية ديناميكيـة البيروقـراطية (١٩٥٥) The Dynamic of Bureaucracy، والتبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية (١٩٦٤) Exchange and Power in Social Life، وبناء المنـظمـات (١٩٧١) The Structure of Organization. وفى هذا المقام نحن نهتم بمحاولته إنشاء نظرية عامة عن التبادل فى الحياة الاجتماعية.

أهدافه:

اهتمام بلاو الرئيسى هو تحليل الاتحادات الاجتماعية Social associations، وكذلك العمليات التى تحكم هذه الاتحـادات، والأشكال التى تشكلها[١]. واعتبر أن العمليات المهمة فى تلك الاتحـادات مثل التبادل الاجتـماعى، تبتدئ عند الفرد أى عند مـستوى الوحدات الصـغرى microscopic. وتتحـرك نحو الوحـدات الكبرى macroscopic. وبذل جهداً كبيراً فى إنشاء نظرية عامة استقرائية عن التبادل والبناء الاجتماعى.

نظريته:

اعتبر بلاو أن العمليات الاجتماعية الأكثر تعقيداً تتطور من عمليات بسيطة[٢]. واعتـبر أن انبعـاث التنظيم الاجتـماعى هو عـملية استطرادية، تبـتدئ بعـمليات الوحدات الصغرى.

(1) Blau: "Exchange and Power in Social Life Wiley, New York, 1964, P. 2.

(2) Ibid.: Introduction.

obeikan.com

واعتبـر أن قوى الجاذبية الاجتمـاعية Social attrsction تستمـيل وتنبه وتحرك معاملات التبادل. وتتركب هذه القوى من الـشعور بالانجذاب والرغبة فى مختلف أنواع المكافآت، هذه القوى منغرسة ولها جذور فـى العمليات السيكولوجية الأولية الإنسانـية[١]. وهكذا تعـمل دوافع الجـاذبيـة والمكافـأة على نشـأة تبـادل المنابع exchange of resources، وهذه تعتـبر أول خطوة فى عمليـة الاتحاد الاجتـماعى Social association.

وبمجرد أن يـحدث التبـادل يبتـدئ تمايز المكانات والقوة، ومن ثَمَّ الـفرد الذى يمتلك منابع resources (مصادر) يـحتاجـها الآخرون. والـذى فـى الوقت نـفـسه لا يعتـمد عليهم بأى أسـلوب، ذلك يصنع موقفًـا فيه إشـباع حاجـات الآخرين يتطلب منهم الامـتثـال والإذعان لرغبـات مالك هذا الموقف. وبهـذا الشكل أدى التبادل إلى نشأة التمايز والفروق فى المكانة status والقوة power[٢].

فإذا كانت المميـزات والمنفعة الناجـمة عن الإذعان والامتثـال تزيد وترجح كفة المشقة والعناء المبذول فى الـعمل طبقًا لرغبة صاحب العـمل أى دافع الأجر مثلاً، ذلك يؤدى إلى انبعاث التأييد الجمعى لموقف القوة، وهذا بدوره يؤدى إلى الاتفاق العام consensus، وأخيرًا إلى شرعية القوة. وهكذا تصبح السلطة الشرعية أساس التنظيـم، وتؤدى إلى إنجـاز مـختلف المواضـيع، واسـتـقـرار التنظـيم، وانتظام institutionalization القيم والمعايير والمبادئ ونقل المعلومات[٣].

وبينما ينشأ وينمـو التأييد والشرعية للقوة من ناحـية، ربما يكون هناك أيضًا بل وفى نفس الوقت أفـراد يشعرون بالاسـتغلال لأنهم يحـصلون على مكافآت غـير مشبعة وغير كافية، أى أن مميزات ومنفعة الإذعان والامتثال لا تعدل المشقة والعناء المبـذول فى العمل، هؤلاء الأفـراد قـد يوصل كل للآخر إحـسـاسهم بالغـضب والإحبـاط بل والعدوانية، ويؤدى ذلك إلى رفض جـمعى للقـوة، وهكذا تنبعث قوى معارضة خصيمة للجماعة التى فى مركز القوة أو مركز ضبط الموقف[٤].

---

(1) Ibid: chaps.: 1, 2, 3.
(2) Ibid: chaps.: 4, 5.
(3) Ibid: chaps.: 8.
(4) Ibid: chaps.: 9.

وتبعًا لذلك، فإذا كان من ناحية عملية التبادل المتشابكة تؤدى إلى توازن القوى ودفعًا نحو التوازن فى العلاقات، فإنه فى الناحية المقابلة حيث الاضطراب فى المكافآت، وتدهور معدل التكلفة (أى تكلفة حياة العامل أى أجره) يؤدى إلى عدم التوازن فى العلاقات وإلى المعارضة والصراع، ومن ثَمَّ يحدث التغير الاجتماعى[1].

وبناء على ذلك، فإن العملية المصاحبة لاختلاف توازن القوى تميل إلى إنتاج عدم توازن فى الحياة الاجتماعية، فتؤدى إلى جدل dialectic بين المبادلة (الأخذ والعطاء) وعدم التوازن، هذه العملية تشكل أسس الديناميكيات الاجتماعية. ولهذا يؤدى التبادل exchange إلى كل من البناء والعملية، أى كل من السكون static والحركة dynamic[2].

وهكذا يمكن القول أن نظرية بلاو تقوم على أساس مفاهيم معينة وهى:

١- فرد متأثر بدوافع الجاذبية الاجتماعية والمكافأة.

٢- عملية التبادل الاجتماعى، ونشأة التمايز فى المكانات والقوة.

٣- التنظيم والشرعية يؤديان إلى التوازن.

٤- الإحساس بالاستغلال يؤدى إلى عدم التوازن الذى يؤدى إلى التعارض والتغير.

٥- الجدل الناجم بين التبادل واللاتوزان يؤدى إلى الديناميكية الاجتماعية.

***

(1) Ibid: chaps.: 11.

(2) Ibid: chaps.: 12.

obeikan.com